ملكة الأرخبيل

رواية

د. إيهاب سلام

طبعة أولى

٢٠٠١ م

دار الأيام
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - هـ: ٢٢١٦٩٠٤
بيروت - هـ: ٠٣/٧٧٥١٢٤

الفصل الأول

الوثن

يجلس الكاهن دائما يعلم الناس تعاليم الدين تحت الأشجار الوارفة . يجلسون على الحشائش الناعمة .ينصتون بإخبات . والرجل كأنما يلقي شعراً يحفظه عن ظهر قلب . ويردده من حين لآخر . يقول الكاهن :

- لم يكن هناك غيره . هو واحد أزلي لا مكان يحدده ولا زمان يبدأ منه وينتهي إليه . هو الذي شاء أن يكون هذا الكون . وصنعه من ذاته . أنقسم على نفسه . جزء متنوع ما يكاد يحيا حتى يموت . وما يكاد ينشأ حتى يفنى . محدود المكان ، محدود الزمان . له صورة متغيرة . وأشباه كثيرة ، مجسمة . والجزء الآخر هو الجزء الأصيل هو الكل الذي مهما أخذ منه لا يتغير . لا مثيل له أزلي أبدي لا مكان له ولا زمان . لا صورة له ولا شبيه ولا تجسيم .

تدخل أحد الجالسين وسأله :

- ولم أنقسم على نفسه ؟ ..

قال الكاهن : هذه هي مشيئته ! ..

سأل السائل مرة أخرى :

- وكيف من لا جسم ولا صورة ولا حدود ينقسم إلى أشياء مجسمة لها صور وحدود .

- هذه قدرة . سر من أسراره .

وسأل الرجل مرة أخري :

- إذا كان لا جسم له ولا مثيل ولا زمن ولا مكان فكيف إذاً نصنع له وثناً ؟

قال الكاهن مرتبكاً :

- هذا رمز ليس إلا .

- كيف نرمز لمن ليس له رمز ؟

نهض الكاهن من جلسته وهو يقول :
- أنت تجدف .
أشار إليه بإصبعه كأنما يريد أن يخرق عينه :
-أمض .. أمض من هذه الجزيرة . لا تمكث فيها أبداً . قال الشاب وهو يسأل :
- من أعطاك هذه السلطة .. السلطة في طردي ؟
- أنت تجدف .. (ورفع صوته) .. لا مكان لك بين المؤمنين . كل الناس ترفضك .
نهضت واحدة من النسوة ، وقالت :
- ولكني لا أرفضه .
سألها الكاهن مستغرباً :
- من أنت ؟
قالت بتحد : أنا زوجه .
قال الكاهن : ومن عقد قرانك عليه ؟ ..
قالت كأنما تجره إلى مصيدة : أنت !! ..
قال الكاهن : وأنا الآن أفسخ زواجك منه لأنه مارق .
صرخت الفتاة : لا .. لا يمكنك .
قال الكاهن : إذاً غادري الجزيرة معه الآن . إذا مكثتما حتى صباح اليوم التالي فسوف آمر حرس المعبد بسفك دمكما .
قال الفتي ، وهو يشد ذراع زوجته بعدما دنا منها : أنت لست كاهناً .. أنت لست مؤمناً .. أنت سفاك دماء .
زعق الكاهن : أمض .. أمض .
والناس جالسون وهم مبهوتون كأنما فاجأتهم صاعقة .

•••

عند الفجر ، وضوء خافت يتسلل من السماء . ركب الفتي والفتاة قارباً متجهين إلى جزيرة ملكة الأرخبيل . يريد الفتى أن يشكو الكاهن إلى الملكة من سوء معاملته . شعر أنه ظلم لمجرد المناقشة التي رفضها الكاهن . هناك سوف تقتص الملكة من هذا الكاهن ، وقد تعزله .

سألت المرأة : هل تعرف الطريق يا تراتيل إلى جزيرة الملكة ؟

قال الشاب في ثقة : لطالما ذهبت حاملاً الأسماك لبيعها في سوق الجزيرة . ألا تعرفين أن زوجك صياد. وأنه بحار ماهر .

غيرت المرأة الحديث قائلة :لكنك أخرجت الرجل عن طوره كأنك كنت تسخر من ديانتنا .

– لا .. أنا لم أسخر . ولكن غاظني جمود فكره فعلاً . يقول إن إله الكون لا مثيل له ثم ينشئ له صنماً . ويوجه الصلوات إلى هذا الوثن . كنت أريد أن أجرد الديانة من هذه الأفكار المتناقضة . نعم أنا أومن بالإله أنه واحد ولا مثيل له وليس له زمان . وأن الكون جاء بأوامره ، لكن لا يمكن أن أرمز له بحجر وأقف أمامه متعبداً .

وأبحر تراتيل إلى جزيرة ملكة الأرخبيل . كان الجو صحواً والبحر ينقل النسائم على أمواجه . والشمس ساطعة تبارك الكون بأشعتها .

•••

أستيقظ الكاهن قبل ظهور الشمس . وقامت إحدى نسائه بغسله ، وهو لا يتحرك ولا حتى يجفف الماء عن جسده . كان كرشه قد تدلي في ذلك الإناء الكبير الذي قعد فيه والمصنوع من الفخار .

والمرأة تمر عليه بالماء بهمة ونشاط بقطعة من القماش تزيل عنه القذارة .

ارتدى ثياب الكهنوت وتوجه إلى المعبد سيراً على الأقدام . كان المعبد قريباً

دخل المعبد والنار موقدة ورائحة البخور تملأ المكان ، وشعاع الشمس يدخل على استحياء إلى داخل المعبد .. وسمع صغار الكهنة صوتاً يصرخ مختنقاً :

- من فعل ذلك ؟ . ولحق بالكاهن صغار الكهنة بملابسهم الصفراء . وجمدوا في مكانهم . كان تمثال الإله قد تحطم عن آخره ، وصار فتاتاً .

الفصل الثاني
في حضرة الملكة

رسا القارب على شاطئ الجزيرة . أخترق كثيراً من القوارب والزوارق الراسية . وربط تراتيل القارب عند الشاطئ . ونزل إلى الماء ليحمل زوجه من القارب إلى الشاطئ ، ولم تلمس المياه ثوبها لأنها كانت في حضنه . قالت بهمس :

– الملعون كان يريد أن يفرقنا .

– سنعود إلى الجزيرة رغم أنفه . ولسوف أجرده من مقامه .

– تستطيع يا تراتيل .

– والآن سوف آخذك إلى بيت أحد الصيادين . أعرفه منذ زمن . ستبقين عنده حتى أقابل الملكة .. ملكة الأرخبيل .

– ولم سميت ملكة الأرخبيل ؟

– لأنها تحكم مئات من الجزر . ألا تعرفين أننا نعيش في أرخبيل . إنه مجموعة من الجزر .

وأخذها من يدها وهى تحمل صرة الملابس ، تمشي مستندة إليه كأنها تريد أن تغوص فيه . هو بحرها فلم لا تعوم فيه ؟ .. ودق باب دار ، فخرج إليه صياد عجوز وقال له : تراتيل . صافحه وأحتضنه دون قبل . ضمةً جهة الشمال وأخرى جهة اليمين وقال :

– أودع لديك زوجي .. حتى أعود .

– أين تذهب ؟ ..

– أمر هام لا بد من إنجازه .

•••

مثل تراتيل أمام ملكة الأرخبيل . لم يظن تراتيل انه سيرى امرأة جميلة في حياته مثل هذه المرأة . الشعر الأسود الناعم يخفي التاج جزءاً منه . وعينان

مشروطتان ذاتا زنبقتين سوداوين وأنف دقيق وبشرة ناعمة بيضاء ، وقامة تبدو طويلة بسبب الثوب الطويل .

قالت : جئت تشكو .. ممن تشكو ؟ ..

قال تراتيل بهدوء :

- الكاهن طردني من جزيرتي التي أعيش فيها .

- وما السبب؟

- قال إنني أجدف في حق الدين .

وفيما كان تجديفك في رأيه ؟

- استغربت أن يكون إله الكون لا مثيل له ويرمز له بوثن ! ..

دهشت الملكة من رأيه وتفكرت :

- حقيقة كيف يكون ذلك كذلك ؟ ..

ثم سألته : وماذا قال لك ؟ ..

قال تراتيل : إنه يزعم أن ذلك الوثن ما هو إلا رمز . ولما جادلته في ذلك . استغربت . أمرني بمغادرة الجزيرة أنا وزوجي . أتهمني بالتجديف في حق الدين مع أنى كنت أناقشه ولم أتعرض لتعاليم الدين إنما تعرضت لهذا الوثن الذي صنعته اليدان كيف يرمز للإله ؟ ..

- أنت متزوج ؟

- نعم .. متزوج .

- منذ متى ؟

- منذ شهور .

- وهل لك في هذه الجزيرة حاجة ؟

- أنا صياد ومقري هناك .

- لكنك حكيم . عليك بالحكمة وأترك الصيد .

- وهل الحكمة تشتري لي الطعام والثياب والمأوى .

– إنها لا تشتري ، لكن إذا كنت حكيم الملكة مثلاً فإن هذه الحكمة لن تكون إلا بمقابل . ومن هذا المقابل سوف تحيا حياة رغدة . هل تقبل ؟

– أجرب . ماذا سوف أخسر . لقد خسرت ترابي . وماذا بعد خسارة التراب ؟

قالت الملكة ضاحكة :

– هناك خسارة الماء .. وخسارة النار ..

قاطعها قائلاً : النار المقدسة .

– لا .. أي نار . وهناك خسارة الهواء في هذه الحالة يكون الموت . الخسارة الكبرى .

قال تراتيل في هدوء :

– لا أظن أن الموت خسارة كبرى .

–كيف ؟

– ذلك لأن الروح سوف تنسلخ من الجسد . حقا يتحلل الجسد لكن هل الروح تتحلل ؟

– ومن أدراك ؟

– هذا إحساس يا مولاتي . إن الإنسان لو قطعت يده تبقى روحه . ولو قطعت يداه تبقى روحه . ولو قطعت أطرافه جميعها تبقي روحه .فهل لو قطعت رأسه فيحدث الموت .. تختفي روحه . لا أظن ! ..

– حكيم .. حكيم فعلاً ... وأين تذهب الروح ؟

– الفضاء عريض وواسع . ربما تطير في السماوات العليا وتكون طبيعتها الطيران والتحليق كالطيور دون أن نراها .

– لكنها يا حكيم الزمان لم تكن موجودة قبل ولادة الإنسان فكيف إذاً ستكون خالدة وصاحبها قد طواه الثرى .

– لا شئ يفني يا مولاتي . حتى الجسد إذا تحلل فإن مكوناته تبقـي . تـذوب مع تربة الأرض ، أو تتطاير مع الهواء ، أو تختفي مع حبات المـاء إذا أبتلعـه البحر أو النهر جثة هامدة . إنها يا مولاتي صور .

– ولم لا تكون الروح لها هذه الصور . تتحلل هي الأخرى .

– لا أعتقد . إنها وحدة غريبة كأنها كما قال أجدادنا قبس مـن روح الإلـه . هل رأيت روحا تتصهر في التراب أو الماء أو تندمج في الهواء أو حتى النار ؟

– حقا !! ..

ثم أردفت بعد صمت :" متى تبدأ العمل يا حكيم الملكة ؟ ..

قال : فوراً . إن أحببت .

تأملته . شاب يافع . طويل بعكس أهل الأرخبيل . قوي العضـلات ممشـوق القوام . هيكله صورة بطل وليس حكيماً . لعله بطل حكيم . ينسدل الشعر الناعم على قفاه ، ويسقط على جبينه . يرفعه من حين لآخر . كأنما لا يرغـب فـي أن يحجب عنه رؤية الأشخاص والأشياء . شـعرت كأنمـا أعجبت بـه . دخـل فـي روحها ولم يخرج . كأنه دخل فؤادها وسكن فيـه . كأنـه استقر فـي قلبهـا ولـن يخرج . ولو كان ذلك حباً من النظرة الأولى فذلك مقضي عليه بالفنـاء . أتغرم الملكة بفرد من أفراد الشعب . يمكن فقـط أن تهوى حكيمهـا . إنهـا ترفعـه مـن مرتبة الحكيم حتى يليق بها . وتهواه ويهواها دون تلامس .هوي نقي ليس فيـه جنس .

قالت الملكة :

– إن هذه الدنيا أمرها غريب ، كأن هناك طـائراً ألتقط الإنسـان مـن مكـان وحطه في مكان آخر ويأتي بعد فترة طالت أو قصرت يأخذه من جديد .

ابتسم تراتيل وهو يقول :

– من أي مكان يا مولاتي وإلى أي مكان . إنه مكان واحد ينشأ فيه ويمـوت فيه .هو هذه الأرض أو الأراضي المجاورة .

-إذاً أذهب وأحضر زوجك . وتعال لتعش في دار قريبة من القصر الملكي . هيا يا حكيم الملكة .

قالت الملكة تحدث نفسها . سوف أقتنصك في أول فرصة . وأضمه إلى مملكتي ولتكن في يوم ما زوجي ولو خفية .

الفصل الثالث

البحر جبار

دخلت بيت الصياد في خوف . كيف يأمن تراتيل زوجها لهذا الرجل . لكن الرجل يبدو عجوزاً لا يتطلع إلى النساء . ليس في البيت امرأة . ألم يكن تراتيل يعرف ذلك ؟ .. إنه حتى لم يتأكد من ذلك تركها ورحل يريد أن يدافع عن حقه في المناقشة ونسى واجبه في صيانة أهل بيته ، كأن الملكة قادرة أن تعيده إلى الجزيرة . وتحاكم الكاهن هناك على طرده لتراتيل . بل لا يعرف أن من الممكن أن تقف الملكة بجانب الكاهن ، وتطرده إلى جزيرة أخرى .

كان فم الصياد يتسع كأنما يبتسم . ويضيق كأنما يئد الابتسامة . حمل إليها طعاماً لتأكله . شعرت برقة قلبه صافية . بدأت تشعر قليلاً بالمكان . جلست إلى حاشية بجانبها صرة ملابسها وملابس زوجها . وطفقت تأكل مما قدمه لها من طعام . جبن أبيض وقطعة من الخيار وخبز . يبدو أنه لم يكن صياداً ثرياً . وعرفت السبب في أنه يعيش في قاع الفقر . حينما امتدت يده إلى زجاجة . تعرفها جيداً ، إنها تلك الزجاجة التي طالما تجرع منها أبوها كؤوساً . ياله من عجوز داعر . أيشرب الخمر في الصباح ؟ .. ماذا ينتظر أن تفعل به ؟ .. إن الخمر تغيب العقل . وقد ينسى أنها زوج صديقه ، ويهاجمها . في هذه الحالة لن تسمح له . سوف تقاومه . لعله لا يتأثر بالخمر . يتجرعها كالماء فلا يسري مفعولها أو لعله يتجرع منها كأساً أو كأسين فلا يغيب ذهنه . كانت تأكل في البداية بنهم لأنها كانت جائعة . حادثة الطرد قفلت معدتها ، وجعلت شهيتها تضمحل . وبدأت ببطء وهو يزدرد الكأس بعد الأخرى . جالت عيناها تبحث عن سكين تدافع به عن نفسها ، فلم تجد . كانت الدار خاوية حقيرة . ألم يكن على تراتيل الحكيم أن يتفقد البيت قبل أن يغادره ، لعله شاهد الدار من قبل ولم يأبه . كان غيظه من الكاهن قد غطي على كل حكمتة ويدفعه لأن يقابل الملكة . ومعروف عنها أنها تقابل رعاياها في الصباح والمساء . امرأة قوية عرفت

كيف تدير المملكة وأدارتها زهاء ثلاث سنوات دون كلل حتى الآن . وتفرغت لمهام الملك دون أن يشغلها زوج أو طفل .

التفت الصياد العجوز إليها وقال : أهلاً .. ردت عليه باقتضاب وقد وقفت اللقمة في حلقها : أهلاً .دنا منها فتوجست شراً .وطفق يدنو منها وهو يشرب . يترنح قليلاً كأنما أفقدته الخمر توازنه ، أو استطاعت أن تغزو جسده وتضعفه . قال لها: أتعرفين أنني لم أتزوج ابداً. قالت تسايره في الحديث : غريب .قال : لا أحب النساء وأكره مسئوليات الزواج . وبرزت أنيابه . ذئب في ثياب إنسان . ثم قال : لكني أعشق كثيراً ، إذا جاءت امرأة الآن فلا تهتمي . تحفزت وهو يدنو منها . بالصدفة شاهدت عن قرب بلطة معلقة على الحائط ، كيف لم تلحظها من قبل حينما تفقدت المكان بعينيها ؟ .. يزين بها الحائط ولعله يستعملها في تنظيف السمك . وعرفت أنها ضالتها . نهضت ، وهو يقول : أجلسي . أسترخي . ابتسمت وقالت كأنما تحاول الهذر معه : ماذا تريد أن تفعل ؟ ..هز كتفيه وهو يقول : أنا لن أفعل شيئاً .. فقط سوف أتذوق شفتيك .

أسرعت ناحية البلطة وهى تقول : إياك أن تدنو مني . قال الصياد وهو يهز كتفيه مرة أخري : أنت حرة ، عودي .. أجلسي ، استريحي . وما كاد يخطو نحوها ويحاول أن يضمها إليه . انتزعت البلطة وهوت بها على رأسه فشجتها ونزفت الدماء . كل ذلك تم في لحظات . قال وهو يترنح والدماء تنبثق من جبهته :

– لقد بقيت هذه البلطة في مكمنها عشرين عاماً . لم أكن أتصور أنها موضوعة هنا ليكون بها مقتلي .

نطق الكلمات متقطعة ، وسقط عائما في دمائه . أفلتت زوج تراتيل هاربة . وتذكرت صرة ملابسها وملابس زوجها فعادت لتحملهما من جديد ، وتولي الفرار .

أين أذهب ؟ .. هل أنتظر بالقرب من الدار ؟ .. شعرت بالباب يفتح والعجوز ذو الجبهة المشجوجة يحاول أن يصرخ . خطت بسرعة نحو الشاطئ . هناك قارب تراتيل سوف تختبئ فيه . ولم تلتفت إلى الخلف لترى العجوز يسقط مترنحاً ، والبلطة التي تركتها في داره يمسكها بيده . يحاول أن يتحرك نحوها لكنه غير قادر على المشي كأنه سيسلم الروح .

***

جاء تراتيل يبحث عن زوجه لم يجدها . رأى باب الصياد العجوز مفتوحاً . ورآه مسجى على الأرض فاقد الروح . دفعه بقدمه حتى يدخل . ولم يجد امرأته ولا صرة ملابسه .أو ملابسها . عاد يقفل الباب ذاهباً إلى الشاطئ .. ماذا حدث ؟ .. أحاول أن يعتدي عليها فصدته صدا قاتلة ؟ .. أين تراها ذهبت ؟ .. أتكون مختبئة بالقارب ؟ .. توجه نحو القارب لكنه لم يجد له أثراً . بحث في أسواق الجزيرة عنها ولم يجدها . كانت الشمس تأذن للمغيب حينما عاد إلى قصر الملكة مضعضعاً . وانصرف إلى داره التي خصصتها له الملكة وعرف مكانها قبل أن يبرح القصر . يفكر في امرأته ، وعلاقتها بمقتل الشيطان العجوز . من أخطاء الرجل أن يترك زوجه مع آخر فإذا كانت عفيفة فقد لا يكون صاحب عفة . وإذا كانت داعرة فقد تلوث شرفه . وفي كلتا الحالتين يتركها لجريمة ترتكبها .

حاول أن ينام لكن النوم جفا عينيه . تقلب في الفراش الوثير ولم يشعر بفخامته ، كان فكره كله متجهاً إلى العروس التي هربت من الوحش . لم تهرب منه إنما هربت من جريمة قد تكون ارتكبتها . لعلها قتلت الصياد العجوز دفاعاً عن العرض وخشيت المسئولية فاختفت . أو لعله لحق بها بعد أن طعنته وقتلها وفك القارب فأخذته الرياح إلى أعماق البحر .

***

لبى نداء الملكة في الصباح . أيكون في حلم أم أنه كابوس ؟.. صياد يتحول إلى حكيم الملكة . وتختفي زوجه لأسباب معروفة ولا يجدها . إنه حلم ممزوج بكابوس .

– هل راقت لك الدار؟ ..

قال : نعم .. إنها أكثر مما يجب .

سألته : ولم عدت وحيداً بالأمس ؟ ..

عرف أنه مراقب ، ولم يجد من الصدق بداً . قال :

– ذهبت لإحضار زوجي من المرسى ، ولم أجدها . ولم أجد القارب أيضاً .. بحثت عنها في الأسواق فلم أعثر عليها .

قالت كأنما تهون عليه :

– سوف تجدها دون أدنى شك . لعلها عادت إلى الجزيرة .

–لكنها لا تستطيع أن تجدف . ولم تركب مركباً من قبل . والمسافة ليست قريبة بيننا وبين الجزيرة محل إقامتنا .

– ربما حاولت فما دمت لم تجد القارب فمعنى ذلك أنها ركبته ربما حاولت وقد تصل . لعلها وجدت أن العيش مع صياد مطرود أمر محفوف بالمخاطر ، فقررت أن تعود .

– لكن الكاهن طردها .

– من أدراك ربما تعود وتستعطفه ويرق قلبه لها . ذهبت تسترجيه أن ...

توقفت عن الكلام ثم قالت : أن يأذن لها بالعودة ..

ثم سألت : والآن يا حكيم الملكة بما تنصحني ؟ ..

قال الصياد وهو يحاول أن يرتدي ثياب الوعاظ :

– أنصحك بالنزول إلى الشعب .

– كيف ؟ ..

- جوسي في الديار .. أذهبي إلى جزر المملكة .. كوني قريبة من شعبك .. لا تجعلي رجال الدين يسيطرون عليه . ستكونين في هذه الحالة قريبة من شعبك.

- تقصد رعاياي .

- لا .. أقصد شعبك .

أنت أيها الصياد تعلمني الحكمة . يبدو أنك صدقت أنك حكيم الملكة . إنها ليلة واحدة ثم أزهد فيك . سألته :

- وما الفرق بين الشعب والرعايا .

قال تراتيل وهو يشعر أن قوى خفية تلهمه ما يقول :

- الشعب له حقوق وعليه واجبات ، أما الرعايا فليس لهم حقوق وهم مثقلون بالواجبات .

قالت مستهزئة وهى تخفي السخرية عن وجهها :

- أفدتنا .

لم يلاحظ تراتيل نبرة السخرية في عبارتها وسمعها تسأل وهو شارد يفكر :

- وما هي حقوق الشعب ؟

قال تراتيل : حقوق كثيرة . الحق أولاً أن يكون حراً . لا سخرة في حياته . الحق أن يتعلم . أن ينطلق . أن يجد طبيباً يداويه . والحق أن يجد مأوى ، فلا يعيش عيشة الكلاب الضالة .

قالت الملكة : إذاً عليّ أن أوفر ذلك كله للشعب .

قال تراتيل : إذا وفرتها هذا كرم منك . وإذا لم يقف أحد رجالك في سبيل أن يكون المواطن حراً متعلماً منطلقاً صحيحاً ذا مأوى .. فأنعم وأكرم .

سألت الملكة : وما هي واجبات الشعب ؟ ..

قال تراتيل دون أن يجد صعوبة في التعبير :

- أن يهب للدفاع عن الوطن والملكة .. عن هذه الجزر التي تأويه . يدافع ضد الغزو الأجنبي أو مجرمين آثمين داخل الوطن . أن يتكافل ويتضامن داخل الوطن . أن يتكافل في سبيل تعليم الأبناء وعيادتهم وعلاجهم وبناء المأوى لهم .

قالت الملكة : إنك حقاً لحكيم . إن نظرتي فيك لم تخب .

سألها تراتيل : ومتى تنزل مولاتي إلى شعبها ؟ ..

إنك تريد أن تبحث عن زوجك . أتظنني ساذجة يا أيها الحكيم . تريد أن تأخذني حجة لأجوب معك الجزر . تفتش فيها عن الزوجة الضائعة ، لعل موج البحر قذف بها إلى جزيرة من الجزر ، لكني سأجاريك حتى تيأس . وتأتي إليّ لأضمك . وبعد ذلك أخلعك كما أخلع الخاتم من يدي ،وأنا أستحم . بالأمس استمتعت بأحد الجنود . استدرجته خادمي المطيعة إلى كوخ معروف في الغابة . ودخل وهو معصوب العينين . وضممته إلي ولثمته وقضى وطره مني وهو لا يراني ولا أراه . حتى لو كان يحاول أن يسقط الحجاب عن عينيه فلن يراني . إذ أن الكوخ يعوم في ظلام دامس . هكذا هي منذ أن تولت العرش تقضي أوطارها دون رقيب . ولا يعرف أحد ما تفعل إلا الخادم المطيعة . لكن كيف السبيل إلى هذا الصياد الحكيم ؟ .. هل يجب أن يعرف أنها المرأة التي تراوده عن نفسها ؟ .. هل تتبع معه الطريقة التي تتبعها مع الجنود من حرسها . لا يرونها ولو أنها تراهم . إن الواحد منهم يعود دون أن يعرف أنه كان في أحضان الملكة ، ولا يعرف أن الخادم هي وصيفتها الخاصة إنما تبدو له في صورة قوادة .. تظهر وتختفي . إنها تقابله محجبة وتهمس له دون أن يتعرف إليها ، ولا يدري أنها تعيش في القصر فالحجاب يمنع الضحية من الكشف . عيناها فقط ظاهرتان تغمزان ، وصوتها فحيح يهمس في أذن الجندي . تقابل الضحية خارج القصر بعد أن تشير سيدتها إليه خفية لذة بلا مقابل في كوخ قريب . تهواه امرأة . تريده . بشرط ألا يتعرف عليها . سيذهب

معصوب العينين تقوده إلى الكوخ . يتبعها ظلاً ثم ينال ما يتمناه . ويمضي مجبور الخاطر . تعود به إلى المدينة التي همست له فيها باللذة .

لا تريد الملكة الارتباط برجل على وجه الدوام .. تريد أن تكون حرة . ليست تابعة لأحد . تريد أن تنهي وتأمر . لا تدخل بيت الزوجية فتتلقي الأوامر والنواهي . وحتى الآن لم يخب سعي الوصيفة العجوز وكل الجنود يتبعونها .

عندما تعود من جولتها في الجزر التابعة لها ، سوف تلعب هذه اللعبة مع ذلك الحكيم . سيكون قد مر دهر على غياب امرأته ، ويتوق وقتها إلى النساء ، فلن يتردد من تلبية النداء . لا بد أن تهفو نفسه إليهن ، ويتبع الخادم إلى الكوخ الموعود .. في الغابة المظلمة .

•••

طفق الزورق الملكي يقاوم الأمواج . يرتفع معها وينخفض . الملكة رابطة الجأش . والحكيم يقول : البحر جبار فعلاً ، لكن الإنسان صنع ما يتأقلم وجبروته . في لحظة يمكن أن يتحول البحر إلى ثور هائج ، ينطح بموجه كل ما عليه .

قالت الملكة ساخرة :

- كأن الأمواج قرون .
- إنها أعنف من القرون يا مولاتي .
- هناك من يعتبر البحر إلهاً من الآلهة .
- وهل تصدقين ؟ ..
- كل شئ عنيف يخافه الإنسان يعتبره إلهاً .
- مع أنني أعتقد أن الإله رحيم . تتجلى رحمته في أشياء كثيرة .
- ولكنه جبار أيضاً . يتجلى جبروته في الزلازل والبراكين . ألا تعرف أن هذه الجزر التي نعيش عليها ما هي إلا حمم براكين .

- نعم .. أعرف . وتجدين رحمة الإله في أنه حولها إلى غابات خضراء ، ومروج جميلة . وتنبثق فيها ينابيع ماء عذب ، رغم أنها محاطة بماء البحر الأجاج .
- أتعتقد فيما تعتقد فيه بعض أهل الجزر البعيدة من أن هناك إلهاً للخير وإلهاً للشر يتصارعان على مدار الدهر .
- هذه فكرة أخترعها الإنسان ، لأنه وضع قيما للشر وقيماً للخير . لكن ماذا كان قبل الإنسان . الحيوان لا يعرف الخير من الشر . ولا الشر من الخير ، فهل كان هناك إلهان في ذلك الوقت . أعتقد أنه إله واحد لا أكثر ولا أقل .
- قد أفهم مسألة أكثر ، لكن ما هو الأقل .. نصف إله مثلاً ؟ ..
- أقصد أنه من غير الممكن أن لا يكون هناك إلا إله واحد .
- كيف ؟ ..
- إذا كانت هذه الدنيا مليئة بالأشياء المتغيرة من حال إلى آخر . الحجر الجبل التل السهل . قد يكون كبيراً ثم يصبح صغيراً . الإنسان الحيوان النبات يولد ثم ينمو ثم يموت . متغيرات . متغيرات كثيرة . ألا يدعونا ذلك إلى أن نسأل : أليس هناك ثابت واحد أزلي صنع ذلك كله .
- كيف هو ثابت ؟
- لأن لا صورة له . لا تجسيم له . لا مكان له . ولا زمان . ومن هنا لا يمكن أن يكون متغيراً . وما دام لا يتغير فهو ثابت . إنه يغير ولا يتغير .
- كيف يغير ؟ ..
- إذا كانت هذه الأشياء كلها بكلمة منه فكيف لا يكون له تأثير عليها ؟ ..
- يا فخامة الحكيم .. لاحظ أن كل الأشياء والحيوان والنبات تسير على نظام معين ، فما دخله في هذا ؟ .. أنا أستيقظ في الصباح .. أنا آكل .. أنا أشرب . أنا أمشي . أنا أتحرك .

- يا مولاتي . هذا هو نظام الكون الذي وضعه من قبل أن يخلقه ، ولو أننا نعرفه ، ونجاهد في سبيل معرفته .

هبت عاصفة منعت الكلام . طفقت تلعب بالزورق الملكي . والملكة هادئة والحكيم أكثر هدوءاً منها .ثم هدأت العاصفة . وبدا الجو يصفو . والأمواج المرتفعة تنخفض . قالت الملكة ساخرة :

-أنظر إن إله الخير تدخل .. حتى تكون الرحلة موفقة .

- إله الخير ثانية يا مولاتي . هذا نظام وضعه الإله الأعظم . التغير المستمر . البحر هائج . البحر هادئ . البحر جبار . البحر رحيم . لا يمكن أن يغيره إنسان . ولا يغير النظام مخلوق . هل تستطعين أن تعيشي دون تنفس .. دون أن تأكلي .. دون أن تشربي ؟؟ ..لا أعتقد أنه يمكن الخروج على الناموس والقواعد الأزلية .

أشارت الملكة إلى يابس قريب . وقالت : ها هي جزيرتك لاحت أرضها .

•••

فرش الحرس بساطاً أحمر اللون . نزلت لتسير عليه الملكة ، وقد اصطف أهل الجزيرة يتقدمهم الكاهن الكبير . مشت وبجانبها حكيم الملكة الجديد على اليمين والوزير على الشمال ، ولكنهما يتأخران خطوة واحدة عنها .

بُهت الكاهن وهو يري الصياد الذي طرده يمشي في معية الملكة ، يرتدي ثياباً فاخرة وتفوح منها رائحة المسك . لم يستطع أن ينبس . كان قد وصل رسول إلى الجزيرة بالأمس سبق الملكة في القدوم ليخبر الكاهن أن الملكة سوف تزور الجزيرة ومعبدها ،فأقيمت الزينات احتفالا بقدومها .

شاهدت الملكة وهى تسير الأطفال تجري وراء موكبها في أسمال بالية . والشعب - رعاياها - باهتو الوجوه ، ولكنهم فرحون بمقدمها . وكانت الوجوه تتسلل من بين صفوف الجنود لرؤية الملكة . واصطف الجند ذات اليمين وذات

الشمال . السيوف على جنوبهم . ترقد بالقرب منها الخناجر مرشوقة في جواربها .

وصل موكب الملكة إلى المعبد . وهناك دخلت الملكة إلى بهو المعبد الكبير . ورأت الوثن قد أعيد بناؤه من جديد ولم تعرف من تراتيل أنه تحطم قبل أن يغادر الجزيرة . ولم تكن تعرف شيئاً عن الوثن إلا ما قاله لها تراتيل أنه يرمز إلى الإله وهو يستنكر ذلك . أستهجن تراتيل إعادة بناء الوثن من جديد ، فقد حطمه قبل أن يغادر الجزيرة قبل انبلاج الفجر . ثم شد امرأته إلى قاربه ورحل . وها هو الكاهن يعيد تشييد الوثن من جديد . إلهه يصنعه بيده ، فكيف يرمز إلى الإله ؟ ..

أشارت الملكة إلى الصنم وسألت :

- ما هذا ؟ ..

أجاب الكاهن بتواضع وهو يضم يديه إحداهما إلى الأخرى تواضعاً واحتراما :

- هذا رمز الإله الواحد .
- أهذه صورته ؟
- إن لا صورة له .. هذا رمز .
- هل هذا حجمه ؟
- إنه بلا حجم .. ولكننا نتصوره .
- هل هذا كلام يا أيها الكاهن . لا صورة له وله صورة .. لا حجم له وله حجم .

شعر الكاهن أن الصياد الملعون هو الذي يناقشه لا الملكة . ولكنها تمثل السلطة . شعر أنه محاصر لا يقوي على مقارعتها الحجة بالحجة ، وليس في إمكانه أن يطردها من الجزيرة ، فالجزيرة وأهلها كلهم ملك لها . ولم يلمح بين الحاشية الصياد الذي كان يقف منذ قليل بجانبها . أين ذهب ؟ ..

الفصل الرابع
المعارضون يتعذبون

دخلت ملكة الأرخبيل إلى القاعة الواسعة يصحبها رئيس الشرطة . كانت تتفقد تعذيب المعارضين وهم يجلدون وهم يتعذبون . مرت على الأول وهو معلق مصلوب ، والجلاد لا يتردد في جلده أمامها . مرت على الثاني ، وكان يردد : ماء .. ماء .. عطشان .. ألا من سبيل إلى رشفة ماء . سألته الملكة في استهزاء : لو كنت لم تعارض لكانت قطرات الماء تسيل من فمك الآن . قال بضعف : أنا لم أعارض . نظرت إلى رئيس الشرطة وسألته : ما هي جريمته ؟ .. قال : اجتماع في داره للتحريض على قلب نظام الحكم . سألته بابتهاج : إذاً كيف لم تكن تعارض ؟ .. قال المصلوب غاضباً : هذا تلفيق . لم يحقق معي أحد . كيف تنسبون إليّ شئ لم أفعله . نظرت إليه شزراً وسارت إلى الثالث . كان أحد الحرس يخلع له أظافره من جذورها ، وهو صامت لا يتألم ، لا تصدر عنه آهة . سألته الملكة : ألا يؤلمك ذلك ؟ .. نظر إليها باحتقار وسأل : ألا يؤلمك أنت ذلك ؟ .. قالت : إنك تستحق ذلك فكيف يؤلمني ؟ . . سألها : وما هي جنايتي حتى تفعلوا بي ذلك ؟ .. قالت : أنا لم أفعل لك شيئاً . قال : ألم تأمري أنت بفعل ذلك بي؟ . . كان الجندي لا يزال يقص له أظافره من جذورها ، يخلعها أمام نظر الملكة ، وقلبها المتحجر لا يلين . سألت : ماهي تهمته يا رئيس الشرطة ؟ .. أجاب : كان يتسلل إلى القصر ليلاً يحاول أن يصل إلى مخدعك . ضبط ومعه أداة حادة . قال الرجل المصلوب : كذب . لم يحدث شئ من ذلك . أخذوني من بيتي إلى هذا المعتقل .

•••

سألت الملكة حكيمها :

– ما السبيل إلى كشف الحقيقة ؟ ..

- التحقق .. يا مولاتي .
- كيف يتم التحقق ؟ ..
- الملاحظة . المراقبة . وفي الحياة العملية التحقيق . سؤال بعد سؤال يولد الحقيقة . إنك بذلك تكتشفين الحقيقة .

شعرت كأنه يعرف خباياها . أيريد أن يقول لها إنه يجب عليها التحقيق مع هؤلاء المتهمين المعارضين .والتأكد من أنهم يعملون ضدها . أيعرف ذلك الرجل عن المعتقلات السياسية شيئاً ؟ .. أيكون رئيس الشرطة يوهمك أن هؤلاء يعملون ضدك ؟ .. وما هي مصلحته في ذلك ؟ .. ربما يوهمك أنك في خطر . يريد أن تعيشي في رعب دائم من المعارضين حتى تتمسكي به ، فهو منقذك الوحيد .

غيرت الحديث حتى لا تتورط معه . ويدرك أن رئيس الشرطة يقبض على الأبرياء ويسند إليهم جرائم لم يرتكبوها . وسألت : ألم تجد امرأتك بعد ؟

قال تراتيل : بحثت في الجزيرة كلها . بحثت في داري المهجورة . لدى أبويها . لم أجدها قد عادت . أين اختفت ؟ .. ولم اختفت ؟! ..

- هذا أمر عليك أن تتحقق منه ..حتى تكشف الحقيقة ، ولن يتسنى لك معرفته حتى نذهب إلى باقي الجزر .
- أشكرك يا مولاتي على هذا الكرم .
- سأكون معك أيضاً .. من ناحية أتفقد حال الرعية .. أقصد الشعب . ومن ناحية أخري تبحث عن زوجك . ربما ركبت القارب وجرفها التيار إلى مكان لا علم لنا به . البحث سوف يؤكده . وعلى العموم أريد أن أبلغك بأمر قد تسر له . لقد أمرت أن يصرف لكل عائلة ملابس جديدة بدلاً من تلك الأسمال التي كانوا يرتدونها .
- خيراً فعلت مولاتي . ولم يقل لها أنه قبل الإبحار من الجزيرة دخل المعبد وهدم الصنم الجديد .

***

حينما أختلي إلى نفسه في داره . طفق يتساءل عن هذه الحكم التي يطلقها في حضرة الملكة .. من أين يستمدها ؟ .. هل حياته في البحر وصيد الأسماك علماه الحكمة ؟ .. أم أن ذلك إلهام يأتيه من الإله حتى يثبت قدميه في هذه الوظيفة التي أسندتها إليه الملكة ؟ ..

ثم يعاود التفكير في زوجه .. أين اختفت هذه المرأة ؟ ..إن حبها ملك قلبه ، ولا سبيل إلى أن ينظر إلى امرأة أخرى غيرها .. وإذا كانت قد قتلت الصياد العجوز فذلك كان دفاعاً عن النفس ، وحتى لو لم يُعترف لها بحق الدفاع الشرعي . ألا تعرف أن أحداً لم يرها . ولم لم تنتظر في القارب حتى يأتي ، وهو بعيد عن منزل الصياد ؟ .. لعله طاردها وهو ينزف ولم يفارق بعد الحياة فاضطرت أن تحرك القارب إلى الماء وأخذها التيار إلى جزيرة من الجزر رغماً عنها إلا إذا كان لحق بها وقتلها وجعل القارب يبحر دون ربان . لا بد أن في الأمر لغزاً لا أعرفه . وأين أبحرت ؟ .. وعلى أي جزيرة رسا قاربها .

قابل الملكة في المساء فسألته :

- ما رأيك في نظام الحكم المثالي ؟

كان يستغرب من نفسه وهو يقول :

- أن تشركي الناس معك في الحكم .

- كيف ؟

- يفكرون معك في تنظيم حياتهم ووضع القواعد التي تحكم معاملاتهم الاجتماعية والمالية وغيرها وتنفيذها بدقة . يراقب بعضهم البعض في تنفيذ هذه القواعد .ويختارون قضاتهم الذين سيحكمون في المنازعات التي تنشأ بينهم أو يحكمون على من يخرجون على نظمهم .

- أنت تتكلم بطلاقة يا تراتيل ، متى عرفت ذلك كله ؟ .

لم يجب فسألته :

- كيف أترك كل الناس تحكم معي ؟

- لا ضرورة لكل الناس فلنختار كل مائة ..كل ألف واحداً يمثلهم . واحداً يكون عاقلاً رشيداً معروفاً بالحكمة ويثق الناس فيه . لا ينطق عن الهوى . حتى يمكن أن تستشيرهم مولاتي في شئون الحكم والشعب .

قالت الملكة جازمة :

- لنبدأ بمجلس . ولتقدم كل جزيرة خيرة رجالها ، وأنا أختار منهم واحداً .

- ونساؤها يا مولاتي .

- ونساؤها .. ألست ملكة .

لم تكن الفكرة واضحة في ذهن تراتيل لذلك ترك مسألة تعيين المجلس من قبل الملكة دون مناقشة . سوف تبلور الأحداث الفكرة وتحددها . ووقتها لن يتوانى عن إسداء النصح الصحيح .

***

بينما تراتيل يبحث في إحدى الجزر عن امرأته ، كانت الملكة تعلن وسط الناس أنها ستؤلف مجلساً من نبهاء الأرخبيل يساعدها في حكم البلاد . يضع القوانين ويعيد النظر في القوانين القائمة . كانت الملكة تعلن ذلك وهى في قرارة نفسها سوف تجعل هذا المجلس صورياً . إن تراتيل يظن أنه سيجردني من سلطاني . إنني سوف أفعل له ما يريد وما يقترحه حتى يتقرب مني أكثر فاكثر . وحينما أناله .أطرده من الأرخبيل كله . لا يمكن أن أناله عنوة وإلا سوف تحث فضيحة ، وينظر العامة إلى الملكة نظرتهم إلى عاهرة . لا يمكن أن أسقط في نظر الناس ، لا بد أن تبقي هيبتي .كانت هذه الهيبة لي وأنا أميرة ، وحينما أطحت بوالدي العجوز زادت الهيبة وتبعتها رهبة وصولجان . لا بأس أن أستفيد من هؤلاء النبهاء ، وأفعل ما أريد . إنني بحكم وظيفتي إذا

قلت حكماً فلن يتأخروا في التصديق عليه لأنهم يعرفون أنني قد أستغني عن من يعارضني .

حينما جاء تراتيل من رحلة البحث عن المفقودة ، أنبأته الملكة بما قررت ، فأحنى رأسه إجلالاً لها وهو يقول :

– يا مولاتي جلالتك ملكة تحكم ومعها شعبها .

ركبا السفينة عائدين إلى عاصمة الملك ، وكان وزيرها في سفينة أخرى يتلمظ . ويقول لمساعده :

– إن هذه المرأة إما داهية .. وإما أصابها الخبل .

قال المساعد :

– يا مولاي إن الملكة ذكية للغاية . تريد أن يكون نبهاء الأرخبيل تحت عينيها . تكشف اتجاهاتهم من خلال المناقشات التي ستديرها في ذلك المجلس المزعوم . تريد أن تمسك الأمور بيدها .

سأل الوزير : لكن كيف أقنعها ذلك الصياد بالفكرة ؟ ..

الفصل الخامس

المراودة

كان تراتيل يميل أن يجوس في الأسواق ، يبحث عن زوجه التائهة ، لعلها لا تزال في جزيرة مقر المملكة ، ولم تبرحها . لعلها خرجت مندفعة من بيت العجوز الخائن ، ولا تزال تجوب الشوارع بحثاً عنه ، وهو يذهب ويجئ لعله يجدها . معني ذلك أنها لم تركب القارب ، فهل سُرق ؟ .. أم أنها أبحرت به مسافة في البحر وعادت من جديد إلى جزيرة الملك لما وجدت أنها ستتوه في البحر ورست بالقارب في مكان آخر لا يعرفه .

في نفس الوقت كان تراتيل يستقي الحكمة من الحديث مع الناس البسطاء . يلقي الأسئلة ويسمع الإجابات ويبلورها ويستنبط منا الموعظة والحكمة . عرف أن الشعب مدرسة وهو تلميذ فيها فنعم المدرسة ونعم التلميذ .

عرف أن للملكة مقراً سريا تعتقل فيه زعماء المعارضة لحكمها وتصرفاتها ، وعرف أن أوجه التعذيب للمعارضين لا تتوقف وتتلون وتتعدد ، وصمم أن يغير هذه الحرباء . وأن يجعلها تعدل من سلوكها المقيت . تبدو أمام الشعب بوجه باسم . ومن خلف الناس بوجه بشع .

صادفته في السوق امرأة محجبة في زاوية كان يستظل بظلها . لا تكاد تظهر عيناها من خلف برقع غير شفاف . ونادراً ما كان في الجزيرة امرأة تتحجب . واحتكت به وهى تقول : أعرف أنك عطشان . استغرب وهو يقول : أنا ..قالت : عندي لك هدية سوف تروي عطشك . فهم تراتيل أن المرأة قوادة تبيع الهوى . قال لها : والهدية أنت .. قالت كأنما استطاعت أن تصطاده : لا .. إنها سوف تعجبك .. قابلني ... قاطعها وهو يقول :انصرفي يا امرأة .. لست أنا الرجل الذي تطلبينه . قالت وهي تبدو لحوحة : الأمر لن تغرم فيه مالاً ولا شيئاً . إنها متعة خالصة . قال محتداً : انصرفي ، أنا رجل متزوج .

اختفت القوادة من أمامه .

عاد تراتيل إلى القصر حيث تقع داره .
ذهبت المرأة على الفور إلى ملكة الأرخبيل وقالت :
- لم يرض يا مولاتي .
استغربت وسألت : كيف ؟
-- قال لي انصرفي يا امرأة .
أرسلت الملكة على الفور رسولا إلى تراتيل يدعوه للامتثال أمام الملكة .
وتوارت الخادم في لمح البصر ، ربما يعرفها من هيئتها فهو ذكي ولماح .

•••

دخل تراتيل على الملكة وسألته : - أين كنت ؟
- كنت أبحث عن زوجتى في الأسواق .
- ألم تجدها بعد ؟ ..نفرض أنها ظلت غائبة طوال العمر .. أستبقي هكذا دون زواج .
كاد أن يقول لها : ما يضيرك أنت ؟ .. غير أنه قال :
- حتى أتأكد .
- وماذا لو عرضت عليك امرأة نفسها ألا تلبي نداءها ؟ ..
- أنا لا ألبي نداء أي امرأة .. هذا زنا تأباه نفسي .
- إذاً تزوج . لك الحق في أن تتزوج أكثر من امرأة .
- لم أجد بعد امرأة تحل بدلاً من زوجي . وفي نفس الوقت لم تغرب شمس الأمل في العثور عليها .
- لو عرضت عليك الزواج مني فهل تقبل ؟ ..
قال بخجل : مولاتي .. وهل واحد من العامة يمكن أن يكون نداً لأصحاب الدماء الزرقاء .
- أنت لم تعد من العامة .. أنت حكيم المملكة .
- على العموم أنا لا أرضى أن أكون زوج الملكة .

- سوف تكون ملكاً .
- لا .. يا مولاتى . ليس في نظم المملكة ما إذا تزوج رجل ملكة اصبح ملكاً . يصبح فقط زوج الملكة .
- كيف ذلك ؟ .. ألا تكون زوج الملك ملكة .
- لا يا مولاتي . ليس في نظم المملكة ذلك .
- عجيبة . وكيف كانت أمي ملكة ؟
- ذلك كان تجاوزاً .. لا يوجد غير الملك أو الملكة فقط . وزوجه أو زوجها ليسا إلا فردين عاديين .
- إذاً تريدني أن أتنازل لك عن العرش .
- حاشا يا مولاتي .. حاشا . ما أنا إلا صياد فقير لا أفهم في أعمال الملوك .
- وإذا أمرتك أن تتزوجني .
- هذا هو العقد الوحيد الذي ليس فيه أوامر . يجب فيه رضا الطرفين .
- ولم لا ترضى .
- قلت لك يا مولاتي . أنت السماء وأنا الأرض . هل رأيت السماء تنزل إلى الأرض ؟ ..إنها دائماً في العلياء .

زهقت وقالت :

- أنت حيرتني معك .

غير الحديث وقال :

- أريد أن أقول لك شيئاً هاماً يا مولاتي .
- ما هو ؟ ..
- أريد أن تداهمي المعاقل السرية التي أنشأها رئيس الشرطة . إنه يقبض فيها على الأبرياء غير الموالين له .. ويزج بهم فيها حيث ينالون قسطاً كبيرا من التعذيب بلا مبرر .

-أين سمعت ذلك ؟ ..

- في الأسواق .

- من الذي قال لك ذلك ؟ ..

- أناس عابرون . لا أعرف أسماءهم . ولا أذكر وجوههم .

- ولم لم تقبض عليهم وتأتيني بهم ؟

- معقول يا مولاتي .. ما أنا إلا رجل لا سلطان له .

- وكيف عرفوا بأمر هذه المعاقل السرية وهى سرية ؟ ..

- لابد أن أبناءهم أو آباءهم أو أقرباء لهم زُجوا فيها . أو لعل الحرس .. حرس المعتقلات أذاعوا ذلك تباهياً أو رغبة في إرهاب خلق الإله .

- وماذا يفعل رئيس الشرطة بهؤلاء الأبرياء ؟ ..

- إنه يقبض عليهم بتهمة المؤامرة . ثم يعذبهم حتى يعترفوا باعترافات غير صحيحة . وإذا ما قدمهم لك تظنين أنه يخدم الملكة . ويظهر بمظهر من يحمي الملكة ضد الدسائس .

- على العموم سوف أبحث الأمر .

•••

الأبرياء .. الأبرياء .. أيكون كل ما قاله تراتيل قريباً من الصدق . إن المعتقلين ينكرون ما وجهت إليهم من تهم . شعرت وقتها في قرارة نفسي أنهم أبرياء .

طلبت رئيس الشرطة فأمتثل أمامها :

- لقد ذاع أمر معتقلاتك يا رئيس الشرطة .

- كيف يا مولاتي . إن هذه السجون سرية للغاية وتقع في الصحراء الخالية من البشر .

- أعرف لكن الناس تسمع بها وبما يحدث فيها .

- كيف ذلك وحتى الآن لم يخرج واحد منها دخل فيها .

- يبدو أن جندك أذاعوا الخبر .
- وكيف عرفت ؟
- من تراتيل .
- حكيم المملكة .
- نعم .. بلحمه ودمه .

•••

انصرف رئيس الشرطة وهو يفكر . يحاول أن يجد مخفي لهذا الحكيم . ظهر فجأة دون إرهاصات . وتبنته الملكة وسمعت كلامه . إنها لا تحذر منه إنما تلفت النظر إلى أن رائحة الجثث العفنة قد ملأت الهواء . ماذا ستفعل لو عرفت كم من معارضين لسياستي أواهم التراب . وكم من معارضين لرئيس الشرطة عذبهم . حينما دخلت المعتقل لم تر إلا عينة فقط . وغريب أن قلبها - وهى المرأة - كان حجراً . ألم تخلع أباها عن العرش وتولت الحكم بدلاً منه . صورة فريدة لن يذيع التاريخ غيرها . لقد جمعت أطباء المملكة العظام ووجهت نظرهم إلى ضرورة الإعلان عن أن أبيها قد زالت قواه العقلية .عاد من جديد طفلاً لا يعي ولا يميز ولا يمكن أن يكون حكمه على الأمور صائباً .ومن ثم لن يتمكن من ممارسة مقاليد الرياسة . ورضخ كبار الأطباء . وخرج المنادي يومها يعلن نبأ تولي الملكة عرش أجدادها . كما اتفقت معه على أن يستتب الأمن على يديه لو انبلجت شرارة مقاومة . كما اتفقت مع قائد جيوش الملك على أن يناصرها . كان ثمنه هو رياسة جهاز الشرطة . ولا يدري الثمن الذي أخذه قائد الجيوش . المهم أنهما أدركا أن المرأة قوية الشكيمة لا يستهان بها ولا بمكرها ودهائها . وها هو الملك السابق يعيش في جزيرة مهجورة تحيطه حراسة مشددة من كل جانب . خشية أن يهرب ويحاول استرداد العرش ولا يعرف أحد أين اختفت بناته أخواتها. وعرف الناس أن الرجل المريض تنازل بمحض إرادته عن العرش لأبنته لكبر سنه ومرضه .

وتأكد عجزه بتقرير الأطباء العظام بالمملكة عن حالته الصحية . والآن يظهر هذا المنافس غير العادي ، ذلك الحكيم الخارج من المجهول إلى نور البلاط الملكي . ما هو ثمنه ؟ ..إنه قد يكون بضعة ليالي حمراء . وتختفي الحكمة إلى الأبد . بل يغادر البلاط لإدمانه الخمر والنوم والسهر .

التقى رئيس الشرطة به في إحدى ردهات القصر المطلة على الحديقة الغناء . رأى تراتيل يتأمل فسأله :

- فيم تفكر يا حكيم ؟

قال تراتيل وهو لا يزال يتأمل :

- أفكر في كيف خلق هذا الكون من العدم ؟ ..

- ولم تشغل بالك بذلك يا حكيم ؟

- هذه مسألة من المسائل الكبرى ، يجب أن ينشغل بها الإنسان وإلا لما كان إنساناً .

- أعتبره لم يخلق . وأنه كان هكذا وصار يتلون ويتغير وتتغير صوره ، حتى بلغ صورة الإنسان وسط الصور الأخرى.

- أليس هناك من يشكله ؟ ..

- قد يتشكل من تلقاء نفسه بفضل الرياح والأعاصير والبراكين ودفع الناس بعضهم لبعض . أو يا سيدي لن نختلف . هناك من يشكله وهو والمواد قديمان . هو يصنع من هذه المواد صوراً جديدة كل يوم .

- لا .. لا يمكن أن يكون الكون قديما والمواد قديمة . إنه حديث والمواد حديثة بدليل هذا التغير الكثير فيه .

قال يجاريه :

- إذاً لم توصلت ؟ ..

- توصلت إلى أن في البدء كانت هناك قوة خفية لا صورة لها ولا جسم ولا مكان ولا زمان ولا حدود وهذه القوة لها إمكانية أن تجنب جزءاً من قوتها

وتشكله في صورة لها حيز وزمان ومكان وهى منذ زمن بعيد تخلق هذه الصور وتغير في أشكالها وكياناتها الكبيرة والصغيرة . إنها أضفت على جزء من قوتها صورا وأشكالا مختلفة وها هي الصور والأشكال تنمو وتتكاثر حسب النظم التي وضعتها هذه القوة .

ربت على كتفه وهو يقول :

– هنيئاً لك . إنني أدعوك اليوم إلى حفلة عشاء سوف أقيمها في داري . وسوف ترقص فيها الفتيات الحسناوات . وسوف نشرب فيها حتى الصباح . آه لو شربت . سوف تشعر أنك شخصين في شخص واحد . لم لا تقول إن إلهك سكر ، وأصبح أثنين . ومن هذين الاثنين حدث الكون السعيد ، واحد منهما تغلب على الآخر وبدأ يشكله إلى صور مختلفة .

نظر إليه شزرا وهو يقول :

– لا تسخر وإلا كان الإله قادراً على أن يسخطك قرداً أو كلباً .

ارتبك رئيس الشرطة وهو يقول : لا أقصد .. لا أقصد . ثم سأله بعد صمت ثقيل وتراتيل يتأمل في عمق : هل ستأتي ؟

قال وهو شارد : إلى أين ؟ ..

قال : إلى الحفلة ! ..

الفصل السادس
الحفلة الصاخبة

كانت الراقصات يرقصن رقصة الأرخبيل . يتثنين ويتأودن ويرتعشن ويرفعن سيقانهن ويخفضنها . نحورهن مكشوفة . وأفخاذهن مدملكة متينة البنيان عارية . وكان رئيس الشرطة يحتسي الكأس بجانبه قائد الجيوش يزدرد الخمر من كأسه ببطء وهو بعيد بمشاعره عن الحفلة الصاخبة . لم يكن الصخب يؤثر في قطع تيار ذكرياته . دائماً هي تعيش في كيانه لا تبرحه . حبيبة عمره الملكة ، تلك التي أحبها بقوة ولم يبدر منها ما يدل على حبها له كأنما تكتم الحب في فؤادها . ويوم استغلته ليقف بجانبها ألمحت له أن قلبها يهواه لكن لم تصرح . استغلت حبه لتفوز بالعرش . سعت إلى أبيها الملك السابق أن يوليه قيادة الجيش رغم حداثة سنه . ولم يتردد الملك في تحقيق مطلبها . ولما نحت أباها جانباً كان هو ساعدها الأيمن فوقف بقوات الجيش يناصرها . ووقف معه ذلك الضابط الهمام الذي يجالسه ، رفعته من مرتبة ضابط إلى رئيس الشرطة مما أذهل الناس . وقف معها على أمل أن تقربه إليها وتجعله ملكاً أو حتى زوج الملكة بل رضى في فترة من الفترات أن يكون عشيقها غير أنها لم تحقق هذه الرغبة الدفينة . بل لم تحاول أن تعرها اهتماماً وأخمدتها بل وأدتها في فؤاده المسكين وقلبها الجامد .

•••

كان رئيس الشرطة ينتظر أن يصل حكيم المملكة ، وعده أن يلبي نداءه ، غير أن الوقت مر سريعاً ، وعلا صخب الحفلة وتحول العقلاء إلى سكارى . واغتصب الرجال الراقصات علناً . ولم يكن رئيس الشرطة متزوجاً لذلك أباح أن تمارس هذه المساخر جهاراً في داره .

غير أن قائد الجيش لم يكن معهم . كان سادراً يفكر في غرامه القديم . لقد تزوج لما يأس من قبول ملكة الأرخبيل له زوجاً . وأنجب عدداً من الأطفال

ولو أنه لا يزال يفكر في الهوى المجروح . وعشق امرأة أخرى بجانب زوجه ، يحاول أن يفني فيها غرامه . ونجحت المرأة إلى حد ما أن تنتشله من وهدة اليأس . ولكن حينما يلتقي بمليكته يشتعل الهوى في قلبه من جديد . بيد أنه لم يكن يجرؤ أن يطارحها الهوى . كانت هيبتها طاغية . ويخشى غدرها الذي سمع به ولم يلمسه . يكفي أن تحملق فيه حتى يعرف أنه انتهى . صار رماداً .

انتهت السهرة .. ولم يأت حكيم المملكة . عرف رئيس الشرطة أنه كان يجاريه حتى لا يلح عليه ، لكنه أصر على أن يعاتبه لما يلتقي به . وفعلاً قال له حينما التقيا في دهاليز القصر :

- كيف لم تحقق وعدك ؟ ..

قال الحكيم : داهمني مغص في معدتي . تقيأت وشعرت بالتعب ، فوجدت أن أرسل لك رسولاً يخبرك باعتذاري . لكن لم استطع أن أجد أحداً في الوقت المتأخر . ويبدو أنني سقط مغشياً عليّ وفقدت الوعي .

دخلا إلى عرش الملكة ، وكانت تجلس عليه في أبهة . تبدو اللآلئ تلمع في جيدها . ومن طرف أذنيها ، والذهب يرصع يديها . عارية الذراعين ، خلفها رجلان شديدان يجلبان الهواء لها بمروحتين من ريش النعام .

قالت توجه كلامها إلى رئيس الشرطة :

- أين كنت بالأمس ؟

قال مرتبكاً - في بيتي .

- كيف ذلك وقد أرسلت رسولاً من قبلي فقالوا إن سيدهم ليس في الدار .

- يبدو أن الرسول لم يصرح أنه من قبلك .

- ما علينا .. هل أتيت بكشوف أسماء المرشحين أعضاء المجلس الاستشاري الذي سأؤلفه .

- نعم .. كل الأسماء .

ومد يده بكشوف مليئة بالأسماء تناولتها منه وهو ينحني في خضوع ، وقالت :

– يا تراتيل .. سوف نذهب معاً إلى الجزر لنناقش هؤلاء الناس . ونختار الأصلح منهم .

قال تراتيل : أنا رهن الإشارة يا مولاتي .

أنت إذاً سوف تختارين هؤلاء الأعضاء . سوف تختارين من يقف معك . وترفضين من يقف ضدك .

أنا سأختار من أشاء . سأختار الضعاف . ولو أنهم أصحاب المال أو الفكر أو الثروة .

عل العموم هذه خطوة . وسوف تضطرين أن ترضخي بعد ذلك ولن تتمكني من الاختيار . سيختار الشعب .

إن الفكرة رائعة ، ولو أن فيها مجازفة فهي ضد سلطاني المطلق . ولكن لا أهمية في الأمر ما دمت سوف أتمكن أن أضرب بقرارات هذا المجلس عرض الحائط .

قد تضربين بالقرارات زمناً ، لكن سيأتي الزمان الذي فيه تأمرين فتطعين .

هكذا دارت هذه الأفكار في رأسيهما ، وهى تتصنع الإطلاع على الكشوف . بينما يهمس رئيس الشرطة لنفسه : أنت تفتحين على نفسك بوابة البركان . إنها خطوة نحو القضاء على سلطانك المطلق . ولكن لن أمكن أحداً من أن يمسس هذا السلطان . أعاهدك وأعاهد نفسي .

سأل رئيس الشرطة :

– من الذي أوحى لجلالتك بفكرة هذا المجلس ؟ ..

أشارت إلى تراتيل وهى تقول :

– إنه صاحب الأفكار .

قال رئيس الشرطة ضاحكاً :

- غريب . إنه لا يفكر في أهل الأرض فقط إنما يفكر في أهل السماء .ابتسمت وسألت :

- كيف ذلك ؟ ..

قال رئيس الشرطة : كان يفكر بالأمس في إله في السماوات يخلق الكون ، ويسألني كيف خلقه من العدم .

- وماذا كان رأيه .

- يقول إن الإله أقتطع جزءاً من قوته غير المتناهية ، ليصنع منها الكون المتناهي .

- ولم لم تقل لي هذه الفكرة يا تراتيل .

- إنها لا تزال تختمر في ذهني .

***

قامت ملكة الأرخبيل بالمرور على جزر المملكة واحدة بعد الأخرى ، لاختيار أعضاء المجلس الاستشاري .كان الكاهن في كل جزيرة قد تقدم بعدد من أسماء الوجهاء والنبهاء في جزيرته لتختار منهم الملكة اثنين فقط . كانت الملكة تناقش المرشحين واحدا بعد الآخر . وحكيم المملكة جالس عن يمينها ورئيس الشرطة عن يسارها وبجانبه قائد الجيوش .إذا أحست الملكة ولاء المرشح وإخلاصه فهي تختاره ، وإذا شعرت بتمرده وتعاليه فهي تنحيه وتشكره على المثول أمامها . وعادة ما لا يتدخل أحد في اختيارها . كان تراتيل يرى أنها بداية . وإذا كانت البداية أن تختار بين مختارين أصلاً بمعرفة كاهن الجزيرة ، فسوف يأتي اليوم الذي يختار كل واحد من أفراد الشعب من يراه ومن يحصل على أغلبية الأصوات سيكون هو ممثل الشعب في المجلس .

وفي كل مرة تغادر الملكة الجزيرة كان يحدث أن يتحطم صنم الجزيرة ويتفتت ، مما أدهش الناس .

قدم الكاهن في جزيرة البركان أسمين من وجهاء الجزيرة . قالت الملكة : ألا يوجد إلا هذان الاسمان ؟ ..
قال الكاهن : أنا اخترتهما يا مولاتي ليكونا عضوين في مجلس المستشارين .
قالت الملكة : قدم أكثر من عشر أسماء وأنا أختار من بينهم .
قال الكاهن متبجحاً : ليس لدي غير هذين الاسمين .
قالت الملكة : ألا تعلم أن من حقي أن أختار أو لا أختار . لقد قررت ألا يمثل جزيرة البركان أحد أبداً . قال الكاهن بخضوع مصطنع : لك ما تشائين يا مولاتي .
قالت الملكة : لن يكون أحد وجيهاً في هذه الجزيرة ، كلكم رعايا .(امتعض تراتيل ولكنه وقف صامتاً) . ثم أزداد غضب الملكة فقالت : كل الأشياء والأشخاص في الجزيرة ملكي .
لم يتكلم الكاهن وتقبل الأوامر صاغراً . ثم التفتت الملكة إلى قائد الجيوش وقالت :
- لتبق هنا تجبي الضرائب المتأخرة ، بل تضاعف رسوم الضرائب ، وأعلم أن الأرض والمحلات والمصانع كلها ملكي وحدي .
غادرت الجزيرة وعيناها يتطاير منها الشرر . وهى تقول لرئيس الشرطة : سوف أؤدب هذا الكاهن في الزيارة القادمة .. سوف أعزله .
حينما غادرت الملكة جزيرة البركان ، صعد الكاهن إلى المعبد ليصلي بالناس . وإذا به يفاجأ أن النار المقدسة في المعبد قد خمدت . أطفأت بفعل فاعل . كان الناس في هذه الجزيرة يعبدونها لأنها مصدر البركان . وإذا ما صلوا أمامها فقد تزيح غضب البركان عنهم وتوقف ضرره .

بهت الكاهن لانطفاء جذوة النار .. تلك التي لم تخمد منذ زمن بعيد . ووجدوا الصنم قد تحطم ، وكانت رأسه تشبه قرص الشمس المشتعل إلى الأبد .

الفصل السابع
قائد الجيوش والوحوش

أقام قائد الجيوش في قصر من قصور الملكة . الاستراحة التي تنزل بهـا إذا مـا أرادت أن تستمتع بالمنـاظر الطبيعيـة الخلابـة فـي جزيـرة البركـان . وبـدأ يفـرض سـلطانه علـى أهل الجزيـرة . ويـأمر مسـاعدوه فـي الجزيـرة بجبايـة الضرائب المتأخرة . ويأمر خدم المنزل أن يقودوا إليه في كل يـوم فتـاة عـذراء تسقيه من كؤوس الغرام الملتهبة ، كأنها كؤوس خمـر معتقـة . وأمرهـم بإقامـة الحفلات الماجنة كل يوم .. ينسى فيها امرأتيه الذي ترك إحداهما فـي العاصمـة والأخرى سافرت إلى أهلها في جزيرة الخضر حتى يعود إلى العاصمة . .. إنه ينسى في هذه الحفلات الماجنة هموم الماضي والحاضر .

•••

جلس الكاهن مع مجموعة من العسـكريين . أبتدرهـم قـائلاً : لـم أعـد أطيـق تلك الملكة المتغطرسة . تستبد بسلطاتها . ألا تعرف أنها تستمد سلطانها منـا .. من الشعب . إنني أقترح عليكم أن تستقل جزيرة البركان عن مملكة الأرخبيل . ليكن الجيش في الجزيرة جيشنا ولنتسلح علـى أحسـن وجـه . ولنعلـن الاسـتقلال عن هذه المملكة .

قال أحد الجالسين : ألا تعد هذه خيانة .

قال الكاهن : إنها خيانة لو كانت الملكة عادلة مستبدة لكـن ألا تـرى أن هذا الاستبداد زاد عن حده . هل مقاومة الاستبداد في نظرك خيانة ؟

– أنا معك . لكني أتساءل حتى لا نتعرض للمسئولية .

– إذا كنا سنكون أصحاب السلطة فأين هي المسئولية . علينا فـي البدايـة أن نضع حرساً على قائد الجيوش . وأن نأمر الجيش في الجزيـرة أن يكـون طـوع أمرنا . ويجب أن نحصن الجزيرة ضد أي عـدوان مـن ناحيـة الملكـة . وندعـو علماءنا أن يخترعوا ويبتكروا لنا من السلاح ما ندافع به عن جزيرتنا .

***

دخل قائد المجموعة العسكرية مخدع قائد الجيوش . كان عارياً يضاجع غانية من غواني الجزيرة . صرخ قائلاً :

- من أذن لك بالدخول ؟ ..

قال قائد المجموعة العسكرية :

- دعني أقدم لك نفسي : أنا قائد المجموعة العسكرية المكلفة باعتقالك حتى ينظر كاهن الجزيرة في أمرك .

- كيف ذلك ؟

- لقد أستولي جيش جزيرة البركان على الجزيرة ، وهى تخضع الآن لسلطان الكاهن .

- لا تنسوا أنني قائد الجيوش . وراح يردد : وحوش .. وحوش ..

- هناك .. في مملكة الأرخبيل أنت قائد الجيوش أما هنا في هذه الجزيرة فأنت أسير .

كانت الغانية تحاول أن تتستر بملاءة ، وهو يحاول أن يرتدي ملابسه ، وقد أصابه الذهول . وقامت الغانية تتجه نحو ملابسها حيث علقت في مشجب . وبدأت ترتدي والجنود قد دخلوا الحجرة وطفقوا يحملقون فيها كأنما هي لحم يشاهده جائعون .

تُركت الغانية تذهب .

اقتيد قائد الجيوش إلى سجن الجزيرة . حيث أعتقل . ودخل الكاهن عليه وهو يقول :

- سوف أطلق سراحك إذا ما غضت الملكة الطرف عن الجزيرة . وتركت أهلها يحكمونها بأنفسهم . أما لو حاولت أن تتدخل بجندي واحد فسيكون مصيرك الذبح على نصب المعبد .

***

امتثل رسول جزيرة البركان أمام الملكة وقال :

- سيدي كاهن جزيرة البركان حفظته النار من كل مكروه يبلغك أن جزيرة البركان استقلت عن جزر الأرخبيل .وإذا حدث وقتلتني فسوف يقتل قائد جيوشكم بالمقابل . أما لو عدت وتركتم الجزيرة تحكم بمعرفة شعبها ولم تتعرض لأي عدوان فسوف يطلق سراح قائد الجيوش ويعود سالماً إلى المملكة .

قالت الملكة : أتملي عليّ الشروط ؟

- ما أنا إلا رسول جئت أبلغك باستقلال الجزيرة عن مملكة الأرخبيل . أنا رسول كاهن الجزيرة حفظته النار من كل مكروه .

أشارت إلى أحد الحراس : أكرموه حتى أصل إلى قرار .

حاول حكيم المملكة أن يناقشها . رفضت . انصرفت إلى حجرتها . حبيب العمر معتقل . عشنا طفولتنا معاً عشنا صبانا معاً وساعدني في اعتلاء العرش . . حبنا كان صغيراً وكبر ، لكني لم أتزوجه . ولم أعطه نفسي . والسبب هو العرش . لا .. بل الكبرياء . كيف تتزوج ملكة من رجل من الشعب ولو أنه نبيل . من الرعايا ولو أنه ثري . الكبرياء قتل الحب . لا .. اسكت نبضه فقط . والشوق لا يزال مستعرا . شوق لا يُلبى . أأتركهم يقتلونه وأقوم بغزو الجزيرة . لا .. لا يمكن أن أخون حبي مهما كان كبريائي . إن قلبي لا يزال ينطق باسمه . ليعود وبعد ذلك أغزو الجزيرة .

التقت في الصباح بحكيم المملكة وسألته :

- ما رأيك فيما حدث ؟

قال : إذا استقلت هذه الجزيرة ، وتهاونت فإن الجزر الأخرى سوف تحذو حذوها .

- وهذا الذي سيقتلونه أيذهب دمه هدراً ؟ ..

- في الغزو سوف يموت كثيرون ، فهل إذا زاد عددهم واحداً تكون الطامة الكبرى ؟ ..

- إنه قائد الجيوش يا تراتيل .

قال الحكيم : الأمر لك . ولو أني لا أجد حلاً إلا الحرب للدفاع عن جزء من الوطن سليب .

•••

جاء الرسول بناء على طلب الملكة وقالت له : عد إلى جزيرتك . ودع الكاهن يعيد إلينا قائد الجيوش .

أنحني الرسول ومضى . هكذا يعود الحبيب ولو أن حبه والاقتران به من المستحيلات . لم ؟ .. ألم تحاولي من قبل أن تقترني بالحكيم . وقائد الجيوش رجل من النبلاء وثري أما هذا الصياد فهو من العامة وفقير . أمرك غريب يا أيتها الملكة .إن اقتراني بتراتيل هو حيلة للوصول إليه . أما اقتراني بقائد الجيوش فهو أمر صعب لا أقترفه . إذاً لا زلت على كبريائك . أن تتزوجي رجلاً من عامة الشعب أمر لا يعد مستحيلاً أما أن تتزوجي رجلا نبيلاً فأمر صعب المنال . يا لك من امرأة مستبدة حتى مع نفسها .

•••

عاد قائد الجيوش . وأمتثل أمام الملكة ، وهو يشعر بالذل والخزي والمسكنة . قالت له على الفور وسط اندهاش الجميع :

أستعد لغزو جزيرة البركان . لا بد من استرداد الجزيرة مهما كان الثمن .

الفصل الثامن
النكبة الجديدة

اجتمع مجلس المستشارين الجديد في قاعة كبيرة أعدت في قصر الحكم . وجاءت الملكة ترافقها حاشيتها من كبار رجال الدولة . وانحنى جميع الحاضرين ، ثم أمرتهم بالاستقامة والجلوس . ووقفت فيهم خطيبة . وعن قرب منها وقف حكيم المملكة وقائد الجيوش ورئيس الشرطة .

– لقد قررت أن تكون كل الجزر وما عليها تابعة للمملكة . أي مملوكة للملكة . وكلنا نعمل من أجل المملكة . العامل الزراعي في حقله ولو سمى نفسه فلاحاً . والعامل في محل كبير أو صغير ، ولو سمى نفسه صاحب عمل . لن يكون بعد اليوم مالكاً ، كلنا في خدمة المملكة . أتوافقون .

قالت كلماتها والحكيم يستمع مستغرباً . كل واحد فيهم سوف لن يرفض . لم جبل الشعب على الخنوع . إن الواحد منهم لو رفض يعرف أنه لن يبقى على قيد الحياة وقد يعزل في جب عميق في مكان ناء . إذاً ولم لا تعارض أنت يا بطل ؟ ..

أنا مثلهم لن أعارض . إنني سوف أسعى أن أغير هذه المرأة . ولو أن التغيير سوف يأتي ببطء لكنه آت .

ووافق جميع المستشارين . وأبتسم رئيس الشرطة . كلهم خاضعون خانعون . ارتاحت أسارير الملكة استطردت تقول :

– كلنا سنحارب من أجل استرداد جزيرة البركان . لقد كلفت قائد الجيوش بتدريب الجنود على القتال تدريباً متقدماً حتى يهاجم الخونة في هذه الجزيرة . وإعادة الجزيرة إلى حضن المملكة .

صفق المستشارون بحماس منقطع النظير .

•••

أمتثل أحد الهاربين من جزيرة الصخر الواقعة بالقرب من جزيرة البركـان . لقد اشتهرت هذه الجزيرة بهذا الاسم نظـراً لأن الصخـور البركانيـة تنتشـر فيهـا كما تنتشر فيها الأراضي الصحراوية ، ولو أن بهـا بعـض الأراضـي الزراعيـة الخصبة .

قال الهارب للملكة :

– لقد دخل جنود جزيرة البركان جزيرة الصخر واحتلوا أرجاءها .

التفتت الملكة إلى قـائد الجيـوش وقـالت : قـم الآن علـى رأس الجيـش وأعـد الجزيرة إلى التاج .

وكان التاج مرصعاً بالمجوهرات تتلألأ فوق رأسها . وشعرت كأن أضـواءه بهتت . قال قائد الجيوش :

سوف أبحر اليوم بعد تجهيز الجيـش . وسـأصل فـي الصبـاح البـاكر ومعـي القوارب المقاتلة ، وسف يصلك نبأ استرداد الجزيرة في مساء اليوم التالي .

***

مئات من القوارب خاضت غمار المعركة .. فـي داخلهـا الجنـود المدججيـن بالسلاح . لم يكن تدريبهم على السلاح قد أكتمل . دب الخـوف فـي نفوسهم ولكن لم يكن أمامهم فرصة للـتراجع . شـعر قـائد الجيـوش بتخـاذلهم ولـم يأبـه للأمـر وهمس لنفسه إن الكثرة تغلب الشجاعة .

ما كادت القوارب تقترب من الشواطئ حتى انهالت عليها قذائف من لهـب . أشعلت النار في أخشاب القوارب وفي ثياب الجند ، وسُمعت الصرخات تدوي . اشـتعلت النـار فـي الجنـود فقـذف البعض منهـم بنفسـه إلـى المـاء ليطفـئ النـار الملتهبة . ومنهم من أكلته النيران ولم يقو على مقاومتها فتفحم مع القارب حتـى غرق . وذهل قائد الجيوش في سفينته مـن السـلاح الجديـد وهـو يـرى الحطـام حوله في كل مكـان . وأمـر بعـودة القـوارب المتبقيـة إلـى جزيـرة الملـك . ولـم يشاهد جنود جزيرة البركان وهـم يهللـون ويرقصـون ويحتفلـون بانتصـاراتهم .

دخل قائد الجيوش على الملكة وهو أصفر الوجه هربت الدماء من خديه الحمراوين منكمش القامة يبدو الذبول على وجهه الكسير ، قالت :

– كيف حدثت هذه النكبة يا قائد الجيوش ؟

قال القائد وهو مذهول :

– لقد استعمل العدو سلاحاً جديداً . إنها قذائف من لهب . أودت بأغلب القوارب المحاربة إلا ما تقهقر منها . كنا نود أن نلتحم معهم على الأرض ، لكن هذه القذائف منعتنا .

قالت بعنف :

– أذهب وألزم دارك . لا أريد أن أراك بعد اليوم .

نظر إليها باستعطاف كأنه يذكرها بحبهما القديم أن يكون شفيعاً . لكن لم تنظر إليه حتى لا يهزها الضعف ويجعلها تتراجع . إذا كانت انقلبت على أبيها ألن تنقلب على حبيبها ؟ ..

أشارت الملكة إلى رئيس الشرطة وقالت له :

– لازمه حتى داره .

كانت هذه إشارة من الملكة أن يتخذ اللازم نحو قائد الجيوش غير المظفر . ولم يفهم حكيم المملكة هذه الإيماءة .

•••

دخل قائد الجيوش داره ، يتبعه رئيس الشرطة ، وحرس مكون من أفراد أربعة . أقوياء العضلات مدججين بالسلاح . كانت الدار تطل على شاطئ البحر ، وقد صنع فيها بحيرة يحيطها اليابس من كل جانب . يسبح فيها دون أن تلاطمه الأمواج . وبالقرب منها انتشرت حديقة للأزهار وأخرى للخضراوات . وثالثة كثيفة الأشجار ، وتكعيبة عليها يزحف العنب . وأخرى يتعقد عليها شجر اللبلاب ، يستظل بها في أوقات الظهيرة .

سأل رئيس الشرطة :

- ألا يوجد أحد في الدار ؟ ..
قال قائد الجيوش :
- لا .. سافرت زوجي وأولادي منها إلى جزيرة الخضر إبان المعارك ، وحينما ذهبت إلى جزيرة البركان .
قال رئيس الشرطة :
- إن هذا يسهل علينا مهمتنا .
قال : كيف ؟
غمز رئيس الشرطة إلى الجنود الأربعة ، ذوي الملامح القاسية فهجموا على قائد الجيش ، حاول أن يتملص منهم وأن يقاومهم ، لكن مقاومته ذهبت سدي .كانت قبضات الرجال الأربعة قوية . حاول أن يصرخ لكن تم تكميمه جيداً فأنقطع صوته . وخارت قواه ، وكان معهم حبل استعداداً لهذه المهمة فأوثقوه جيداً به . وألقوا به في البحيرة . ولم يتمكن من السباحة بسبب قيوده . سقط في قاع البحيرة ، تلك التي كان يتخذها مكاناً للسباحة لكن أين هما اليدان اللذان تساعدانه على السباحة ؟ .. لفظ أنفاسه في القاع .
انتظروا حتي طفت الجثة من قاع البحيرة متضخمة امتلأت بالماء رغماً عنها . دخلها من الفم والأنف والأذنين . وجروها إلى اليابس وفكوا وثاقها . ثم تركوها من جديد تطفو عل سطح البحيرة الصغيرة كأنما غرقت وهى تسبح أو أفلتت إلى الماء عنوة وهى تترنح من سكر بين .
أنصرف الجنود . وبعدهم خرج رئيس الشرطة وهو يتأمل ورم الجثة الطافية . كانت ملء الحركة منذ قليل ، أما الآن فقد يلازمها السكون طويلاً حتى تتحلل وتختفي . تذكر محاولة الرجل وهو يستنجد به ولم يدر له ظهره . رآه وهو يوثق وشاهده وهو يكرر الغوث ، لكن بلا جدوى . وسمعه وهو يصرخ ويسب ويشتم لكن بلا طائل تم تكميمه فكف عن الصراخ .
•••

عادت الزوج والأولاد من جزيرة الخضر ، حينما أبلغهم رسول من رئيس الشرطة أن قائد الجيوش عاد بسلامة الإله من جزيرة الصخر بعد معركة طويلة مع جنود جزيرة البركان باءت بالفشل . . وأن عليهم أن يأتوا مسرعين لأن قائد الجيوش يشعر باكتئاب كبير وأنه لا ينام ليالٍ طويلة وربما حضورهم قد يخفف من بلوته . ويبدو أن فشله في المعركة سبب أوجاعاً في فؤاده لا تهدأ .

ولما دخلت المرأة متجهة إلى دارها . كان لا بد أن تمر على البحيرة الصغيرة وترى الجثة طافية وقد بدأت تتحلل .

وأذيع في الجزيرة والأرخبيل أن قائد الجيوش وجد في داره ميتاً . كان غريقاً في بحيرة صناعية اصطنعها في داره ليسبح فيها في أوقات فراغه وراحته .

اضطرت الملكة أن تعين نائبه قائداً للجيوش .

استغرب حكيم المملكة أن يموت قائد الجيوش هذه الميتة وهو رجل يجيد السباحة . وتساءل : إذا كان يريد أن ينتحر فلم لم ينتحر في البحر ، لعله خشي أن تجرفه الرياح بعيداً عن الجزر وتأكل الأسماك الجسد ولا يعرف أحد أنه مات . لعل ذلك كان أشرف له أن يموت ولا يعرف أحد أنه مات ويتحول إلى أسطورة . أما الآن فهو يكشف أمام الناس أنه أنتحر . ولكنه يجيد السباحة فكيف إذاً لم يقاوم الغرق . أو كيف أرغم نفسه على عدم المقاومة وحب الحياة فينا زلزال يجعلنا نقاوم الأخطار حتى ننجو من الموت . إنه لغز محير . لا بد أنه قتل . ومن قتله ؟ .. لعل رئيس الشرطة أغتاله فهو يشاع عنه أنه يغتال المعارضين . ولم يغتاله رئيس الشرطة ؟ .. لغز آخر ليس له حل .

الفصل التاسع
لهيب السلطة

شعرت الملكة بخواء عاطفي بعد اغتيال قائد جيوشها . أظهرت أنها تصدق أنه انتحر لأنه فشل في المعركة مع جزيرة البركان . ولو أنها تعرف في قرارة نفسها أن رئيس الشرطة أغتاله . وكانت تفرق بين طلبها للمتعة وحبها لقائد جيوشها ، فهي تطلب المتعة مع أي إنسان تراه جميلاً في عينيها ، ولكن حبها لقائد جيوشها كان حبها الوحيد ولكنها داست عليه من أجل صالح المملكة . وتحول قلبها إلى حكيم المملكة . كان يتميز عن قائد الجيوش في أنه ملئ بالرجولة بينما القائد كان مخنثاً في تصرفاته . ولا تعرف كيف قضت دهراً تحب مخنثاً . وأجتمع الحب وطلب المتعة حول حكيم المملكة .ووصل حكيم المملكة إلى قناعة أن قائد الجيوش لم ينتحر وربط بين ذهابه إلى داره ومرافقة رئيس الشرطة له يصاحبهما أربعة جنود أشداء أقوياء . وفكر حكيم المملكة كيف ينقذ الملكة من براثن ذلك الوحش . إن السيطرة على المسيطر هي الطريق الوحيد النافذ ، لذلك لما سألته الملكة مرة أخرى :

– أريد أن تشاركني في ملكي يا تراتيل .

قال لها : يا جمال الإله .. يا مليكتي .. أنا رهن إشارتك .

– أحقاً تنطق بالحق ؟ ..

– هذا أمر لا مواربة فيه

– إذاً لم رفضت في البداية .

– لأني كنت صيادا فقيراً . أما وقد مرت ثلاث سنوات على قيامي بمهمة حكيم المملكة وغياب زوجتي وعدم ظهورها ، فلا بأس أن أتزوج خاصة أنك رفعت من مقامي ، وجعلتني أهلاً لك .

صدقت الملكة ، لكن وجهة نظر تراتيل أنه سوف ينفذ إلى السيطرة عليها من خلال الزواج . إنه سيخترق لهيب السلطة وقد أرتدي ثياباً تقيه من هذا

اللهيب ، ولذلك لن يحدث أن يلسع أو يحترق أو تحدث له تشوهات . سوف يفرض إرادته بعد أن يكون قد تمكن .

لكن الملكة أفاقت من سكرة النشوة وتراتيل يقول :

- لي شرط واحد أو شرطان يا مولاتي .

- أشترط كما تشاء .

- أن تعزلي رئيس الشرطة وأن تغلقي المعتقلات التي أنشأها . وأن تجعلي هناك تحقيقاً مع الأفراد قبل الحكم عليهم أو الحكم ببراءتهم .

- كما تشاء يا تراتيل .

***

استدعت الملكة نائب رئيس الشرطة ، وكان معروفاً بمناوأته لرئيس الشرطة في كل الإجراءات التي يتخذها . وقالت له : ستعين أنت رئيس الشرطة . وعليك أن تتقلد منصبك منذ الآن . وعليك بإلغاء المعتقلات التي أنشأها رئيس الشرطة السابق . وأن تعامل الناس بالعدل . وألا تسيء في معاملتك للشعب .

أحنى الرجل رأسه وقال :

- سمعاً وطاعةً يا مولاتي .

وتوجه رئيس الشرط الجديد حاملاً المرسوم بتوليه . ودخل على رئيس الشرطة القديم في ديوانه . ودفع إليه بالمرسوم وهو يقول :

- كنت أريد أن أحقق معك في الجرائم التي ارتكبتها ، لكن الملكة أشارت بالاكتفاء بعزلك . والآن يمكنك أن تغادر دار الشرطة بهدوء وتقبع في بيتك .

أصفر وجه رئيس الشرطة وهو يقرأ المرسوم ثم أبتلع غصة في حلقه . وشرب كوب ماء قريب منه . وتحامل على نفسه وهو ينهض كأنما روحه سحبت منه فتعطل الجسد . وأستردها بعد قليل ومشى خطوات . ودلف إلى

داره وكاد يسقط إعياء ، لولا أن تحامل على تمثال ينتصب في منتصف الدار ، صنعه أحد الفنانين ليمثله .

•••

أعلن في الجزر أن ملكة الأرخبيل زُفت إلى حكيم المملكة . وهاصت الناس ابتهاجاً .وزغردت النسوة . وصفق الشباب وارتسمت ملامح الحبور على وجوه الرجال الوقورين ، فقد كان حكيم المملكة بدأ يشق صفوف الشعب حتى عرفه أهل الجزر كلها . عرفوا حكمه ووصاياه للإنسان . بل عرفوا أنه يذهب إلى الجزر سراً ليحطم الأصنام التي يعاد بناؤها حتى يتأكد الكاهن أنه كلما بني وثنا سوف يحطم حتى أقلعت معظم الجزر عن عادة بناء هذه الأصنام بل ويطفئ النار في كل جزيرة تعبد النار . ويزمعون أنها خالدة مع أنها أمامهم تنطفئ . ويدعو جهاراً إلى إله واحد خلق الكون لا جسم له ولا زمان ولا مكان منبث في كل الكائنات ولو أنه لا يشبههم . نحن فيه وهو فينا . ولو أننا لا نحس به وهو يحس بنا . يؤثر فينا دون أن نعرف ، ويوجهنا إلى الخير دون أن ندري ، ولو أن نزعة الشر تتغلب لدى البعض منا .

كان حكيم المملكة كلما ووجه بحكايات تحطيم الأصنام لا يتكلم حتى لا يكذب ويوحي للآخرين أنها أساطير . أساطير أهل الجزر . وحينما يسألون : حكيم الزمان كيف إذاً تتحطم الأصنام ؟ .. وكيف إذاً تنطفئ النار . يقول : لعله الإله يتدخل فيرسل من يحطمها .

لم يشأ تراتيل أن يحكي بطولاته أمام الناس ، لأنه يعرف أن بعض الناس لا يزال يعبد هذه التماثيل التي شيدها الكهنة غير المقتنعين بوجهة نظره . وأن بعضهم لا يزال يعتقد أن هناك ناراً مقدسة وناراً أخري غير مقدسة . مع أن النار في نظر تراتيل نار تحرق وتلهب ولو أنها في بعض الأحيان تكون مستأنسة يُشوى عليها الخراف والغزلان . وكان يقوم ببطولاته أثناء اختيار الملكة لأعضاء المجلس الاستشاري ، فإذا ما غادرت الملكة الجزيرة ومعها

الحكيم حتى يجد الناس الصنم قد تحطم أو النار الخالدة قد انطفأت وتوقفت عن الاشتعال . وفي جزيرة من الجزر أكتشف فرد كان يتعبد في المعبد حكيم المملكة وهو يحطم الصنم . وخاف أن يعتدي عليه وإلا سيكون عقابه شديدا فآثر السلامة وأختفي ، ثم أذاع الخبر . وربط أهل الجزر بين الخبر الأول والحوادث التي حدثت بعد ذلك ، وتأكدوا أن الحكيم هو محطم الأصنام . ولو أن حكيم المملكة ظل يلتزم الصمت. فكان مجرد إعراض عن السائل . وأذاعت الملكة أن حكيم المملكة سيكون قائد الجيوش ، وسيحل بدلاً من القائد المنتحر .

•••

في ليلة العرس أدرك تراتيل أنه يضاجع امرأة مجربة . عصرت إليها كثيراً من الرجال . إن امرأته الغائبة لم تكن في شهرها الأول تفعل ما تفعله . ولا يعقل أن السن تعطي خبرة للمرأة في صدد المتعة . حقاً كانت زوجه الأولى في عامها السابع عشر . وهذه الملكة في عامها السابع والعشرين . ولكن من المفروض أنها لم تتصل برجل فكيف عرفت كل هذه الأساليب المثيرة للرجل . إن زوجه الأولى كانت خامة لم تتشكل بعد . أما هذه الملكة فهي مادة تم تصنيعها في بوتقة الحياة واللذة . ولكن من أجل صالح الشعب آ ثر أن يبتلع الغصة . كيف إذاً سوف أعيد صياغتها وأشكلها حسبما أشاء إذا لم أتغاض عن هذا الأمر ؟!..

•••

وضعت الملكة خطتها على أساس مهاجمة جزيرة البركان في البداية .ثم استرداد جزيرة الصخر بعد سقوط الجزيرة الأولى ، غير أن حكيم المملكة قائد الجيوش أمر بوضع الخطة في اقتناص الجزيرة الثانية ثم الاستعداد لاقتناص الأولى . وبدأت الاستعدادات . وكانت روح الهزيمة قد سرت في الجنود ، فلما أنبأهم بخطته الجديدة راحت روح الحماس تسرى بينهم . فالأرض االثانية جرداء لن يكون فيها خسائر تذكر . أما الأرض الأولى فإنها تزدحم بالسكان

والجنود ، ولا بد من أجل دخولها أن يحتاج الوضع إلى مجهود وتضحيات كثيرة خاصة أن الأنباء وصلت العاصمة أن أهل جزيرة البركان بدأوا في صنع السلاح بغزارة . المدي والسيوف والدروع والقوارب متينة الصنع المضادة للنار بالإضافة إلى قذائف اللهب .

تدخلت الملكة في مسار الخطة ، وطلبت من قائد جيوشها الجديد أن ينفذ خطته بشرط ألا يترك الهدوء يسود جزيرة الصخر ، لا بد أن ينتقل رجاله ليلاً لذبح واحد أو أكثر من المتمردين المعسكرين في الجزيرة . ووافق تراتيل على ذلك حتى يمكن تدريب الجند على القتال العملي بالإضافة إلى الاستمرار في صنع السلاح والذخائر لمواجهة الجزيرة الغاصبة ودفع العلماء لابتكار سلاح القذائف الملتهبة الذي اخترعته جزيرة البركان .

بدأت قوارب الفدائيين ترسو ليلاً عند شاطئ جزيرة الصخر ويخرج الفدائيون لليابس ويتسللون تحت جنح الظلام ويبدعون بالفتك بالجنود المتربصين . وكان الجنود في المرات الأولى يعودون ومعهم رؤوس المتمردين عبدة النار يعرضونها على قائد الجيش . ثم بدأ جنود الجزيرة المتمردة يأخذون حذرهم فقل عدد الرؤوس .

***

خلال انتشاء الملكة بأخبار قطع دابر المتمردين ، دخل كبير الضباط عليها استجابة لأوامرها . انحنى . وامتثل . وقال :

– هاجم المتمردون اليوم ضفاف جزيرة الملك الشرقية . وقتلوا بعض أطفال الفلاحين ونسائهم وشيوخهم . وولوا الأدبار . تسللوا عبر البحر والحقول حتى وصلوا إليهم .

هبت المرأة واقفة وقالت :

– لا بد أن نكيل لهم الصاع صاعين .

قال كبير الضباط :

- سمعاً وطاعةً يا مولاتي .

كان حكيم المملكة يجلس إلى كرسي العرش بجانبها . ظل جالساً يفكر ثم راح يقول :

- لن يجدي ذلك يا مولاتي . لا بد من استرداد الجزيرة بأكملها . جزيرة الصخر . وستكون المسافة بعيدة جداً بين جزيرة الملك وجزيرة البركان ، ومن ثم نأمن جانبهم .

التفتت الملكة إليه وسألت :

- ولماذا إذاً نتقاعس ؟ ..

- إننا لا نتقاعس . إننا نتدرب ، ومن ثم سنجهز عليهم .

قالت الملكة :

- أريد أن يتم ذلك في أقرب فرصة .

•••

خرجت الملكة في نزهة بحرية ، متجهة إلى بعض الجزر الواقعة تحت سيطرتها ، يصاحبها تراتيل حكيمها وقائد جيوشها . سألته وهي تتأمل البحر العريض :

- ألم تختمر في ذهنك فكرة نشأة الكون بعد يا تراتيل ؟

قال الحكيم : اختمرت يا مولاتي .

- ولم لم تقل لي ؟

- مشاغل الحرب حالت دون ذلك .

- وإلى ماذا توصلت ؟

- توصلت إلى أننا كلنا نعود إلى مصدر واحد . ما نحن إلا صور يصنعها .. من ذرة الرمل إلى قرص الشمس .

- ولم يصنع الصور ؟

- إثباتاً لمقدرته .

- ولمن يثبت هذه المقدرة ؟
- يثبتها لهذه الصور .
قالت الملكة تفكر :
جاءتني فكرة الآن . إنه كمن يكتب كتاباً لا تنتهي صفحاته . لم يكن دافع الكتابة غير الكتابة . وكان هدفه ألا ينتهي هذا الكتاب ، لذلك ظل يكتب ويكتب ويكتب . آلاف الصفحات . كل نجم له كتاب وكل كوكب له كتاب . وداخل الكوكب كل جسم له كتاب . النبات والحيوان والإنسان . ويساعد على استمرار الكتابة ذلك النمو المستمر ، فالكائنات الحية تتوالد . وكل كائن له تاريخ وقصة . وكل إنسان له حكاية ورواية . الصبا والشباب والشيخوخة . وما تكاد تطوى صفحة كتاب حتى يتولد كتاب آخر بل كتب أخرى . إن الإله لا يكتب . لكنه ينشئ . إن الإنشاء هدف في حد ذاته .
قال تراتيل : ربما .. ربما .. يا مولاتي . الأمر يحتمل أكثر من رأي . وقد لا يكون هدفه هو الإنشاء فقط ، إنما قد يكون ضم هذه الصور الجديدة إليه ، فهو يعتز بكل خلقه . وكلما زادت الصور زاد إثباتاً لمقدرته .
فجأة عصفت الريح . وتغير الجو . وبدأت السفينة تتأرجح . وسقطت الأمطار الغزيرة . وعوت الرياح الشديدة . وتكهربت السماء بالبرق . واضطرب الجو في السفينة . ودخلت الملكة إلى مقصورتها ترقب البحر الهائج من قمرتها . وقائد السفينة يصرخ . والجنود يذهبون ويجيئون يلطمهم المطر وتأرجحهم الريح . وترجرجت السفينة . وقالت الملكة هامسة :
- يبدو أن الإله لا يرضى أن يكشف مخلوق سره .
أحس تراتيل أن النهاية دانية :
- على العموم نحن على مقربة من جزيرة الذهب .

وفجأة تدفقت المياه داخل المقصورة . وبدأت الملكة تسبح . وتراتيل يسبح . وخرجا من المقصورة سابحين ، وقد أفلتا قبل أن تمتلئ بالماء . وشعرا أن السفينة شقتها الرياح . وأن جنودها تبعثروا في البحر . قالت الملكة صارخة :

- هذه هي النهاية يا تراتيل .

•••

الفصل العاشر

الحكم من فراش الموت

صارعت الملكة الأمواج والرياح تزأر ، والأمواج تتلاطم ، حتى خارت قواها . التقطها تراتيل ، وطفق يسبح بها حتى شاطئ جزيرة الذهب .

ووضع الناجون الملكة في الفراش ، وبجانبها الحكيم ينهج ويلهج بالشكر للإله للنجاة . وجاء الطبيب ليري الملكة ، وقد أسترد تراتيل أنفاسه . ووقف بجانبها ينتظر نتيجة الفحص . كانت الملكة في غيبوبة لا تفيق منها . ودس النطاسي حشائش في فمها وقال : امضغيها . . أخذت بتلقائية تلوكها حتى كلت . وابتلعت جزءا من الحشائش ولفظت الجزء الآخر . ثم دس شرابا في فمها وقال : أشربيه . بلعته بصعوبة . ثم راحت في النوم .

مر أسبوع ولا تزال الغيبوبة تداهمها . وما يزال النطاسي يذهب ويجئ . يضع على رأسها أعشاباً ويدس في فمها شراباً . ويقرأ تعاويذ في أذنيها . وفي اليوم السابع أفاقت ، وسألت :

- أين أنا ؟

ابتسم تراتيل بسعادة وقال : إنك في جزيرة الذهب .. إحدى جزر الأرخبيل التابعة لعرشك .

قال الطبيب وهو ينتظر نتيجة دوائه : حمداً للألهة .

قالت الملكة : قل الحمد للإله .

أرتبك الطبيب وهو يردد وراءها : حمداً للإله .

كان من المؤمنين بتعدد الآلهة ، وخشي بطش الملكة فردد كلماتها وراءها غصباً عنه . وقالت : أنا لا زلت أحكم أيها الطبيب . قال بخضوع : ونحن رهن إشارتك . قالت : ولو من فراش الموت . قال النطاسي : أين الموت وأين جلالتك يا مولاتي . المسافة جد بعيدة بينكما .

•••

انتقلت الملكة إلى جزيرة الحكم ، بعد أن استردت قليلاً من عافيتها . غير أنها لازمت الفراش تحكم منه المملكة . وكان أول قرار لها : أوقفوا المجازر بيننا وبين جزيرة البركان ، ولنستعد للهجوم الساحق .

استحسن تراتيل هذا القرار . وبدأ يضع مع باقي القواد خطة الهجوم لاسترداد جزيرة البركان . لم يكن الأمر سهلاً . وبحث عن وسيلة تعينه في خطته ، لم يجد غير فرصة عيد النار . حيث تتعطل الحياة في جزيرة البركان وجزيرة الصخر التي أصبحت تابعة لها . ويحتسي الجميع الخمر . ويرقصون ويأكلون حتى يصابوا بالتخمة . ولا يحملون السلاح .

تحركت القوارب ليلاً نحو جزيرة الصخر . وهاجموا الجنود وهم يرقصون ويمرحون . ولم تنفعهم جذوة النار المقدسة المشتعلة في وسط الجزيرة . تم أسر الجميع دون حرب حقيقية . خروا كلهم ساجدين .

تمركزت قوات مملكة الأرخبيل في جزيرة الصخر . وأرسل القائد رسولاً إلى قائد الجيوش بخبر النصر .

دخل قائد الجيوش على الملكة وهي ترقد في فراشها لا تقوى على الحركة كأن عضلاتها شلت من أثر مصارعة الأمواج . وقال تراتيل ، وعلى وجهه ترتسم ابتسامة :

- جاء النصر يا مولاتي .
- -أي نصر ؟ ..
- لقد استرددنا جزيرة الصخر .

فاضت روحها بالبشر :

- أحقاً ؟.. هنيئاً لنا .

في جزيرة الحكم ، عمت الاجتماعات بين علية القوم . البعض كان مشايعاً للملكة يقول إنها هي السبب في النصر لقد وضعت الخطة قبل مرضها ووافقت عليها وهي التي أوقفت أعمال الفدائيين . والبعض الأخر كان منحازاً لتراتيل

حكيم المملكــة وقـائد الجيـوش . يقولـون إنـه لـولا أنـه درب الجنـد وأعدهـم لمـا ظفرت المملكة بالنصر على المتمردين . بل قال بعض وجهاء الجزر البعيدة إن تراتيل أتفـق سـراً مـع حـاكم جزيـرة البركـان علـى أن يعيـد الجزيـرة سـراً وأن الحاكم وافق وما كانت إلا خدعة . وصلت تلك الأخبار إلـى تراتيـل مـن عيونـه فـي كـل الجـزر . ضحـك مـلء شـدقيه . وقـال : خدعـة . يـا لهـم مـن أنـاس يثرثرون . بـل عـرف أن الوزيـر الأول يثرثر مـع بـاقي الـوزراء فـي أمـور غريبة . عرف انهم لا يرضون أبداً أن يحكم الجزيرة ويقال إن الملكة هي التـي تحكم . وأنهم ينون عزله . همس بذلك عينه لدى الوزير الأول .

طلـب نـائب رئيس الشـرطة أن يـأتي إليـه فـورا فـي ديوانـه . ولمـا حضـر قال له :

– لقد عينتك رئيساً للشرطة . وأطلب منك القبض على كل الوزراء ورئيس الشرطة ، وإيداعهم السجن . لقد بلغني أنهم يتآمرون ضدي .

سأل : كيف أتلقى هذا الأمر منك ؟ ..

– ممن تريد أن تتلقى الأمر ؟ .. أتظن أن الملكة تحكم من فـراش المـوت . إنها لا تقوى على الحركة . وأنا أقود البلاد وأحكمها بدلاً منها .

أنحني وهو يقول : سمعاً وطاعة .

خرجت قوات من رجال الشـرطة . أحـاطت منـازل الـوزراء ، واعتقلتهـم ، وقادتهم إلى السجن لمحاكمتهم بتهمة التآمر ضد نظام الحكم .

***

بلغ تراتيل أن الأراضي والمصانع التي آلت إلى الملكة بأمر منهـا قد أنهـار اقتصادهـا . فقد أهمل الفـلاح أرضـه لأنهـا ليست ملكـه ولا يتقـاضى منهـا إلا الفتات . وأهمل الصانع والتاجر مصنعه ومحله لأنهما يأخذان الأرباح كل يوم للجابي ليضعها في خزانة الملكة ، فأصدر أمراً بأن تعاد الأملاك إلـى أصحابهـا ولا يُجبى منهم غير عشر الريع والأرباح في مطلع كل سنة قمرية .

خرجت الجماهير عن بكرة أبيها تهتف بحياة الحاكم الجديد ، وتدعو للملكة بطول العمر . وأذاع تراتيل في الناس أن هذه القرارات الأخيرة هي قرارات الملكة تمليها عليه وهى ترقد في الفراش . ولو أن الجماهير لم تصدق تراتيل لأن هذه التصرفات لم تكن لتفعلها الملكة .

•••

اجتمع تراتيل في صالة واسعة مع مجلس المستشارين للمملكة . وراح يروي لهم قصة اعتقال الوزراء المتمردين :

– حدث أن جاءني شرطي من رجال الشرطة . وأخبرني أن رئيس الشرطة وباقي الوزراء يتناقشون في مسألة خلع الملكة لمرضها وبالتالي خلعي من السلطة لأني تابع لها . وكانت الملكة قد أصيبت بغيبوبة لا تفيق منها إلا لماماً .وتوليت السلطة بتفويض منها . وترون أن اجتماع الوزراء ورئيس الشرطة لمناقشة هذه العملية مخالف للأعراف والتقاليد والهدف منه ذبح الملكية في البلاد ، فهل توافقون على ذلك ؟ ..

قال الأعضاء مرة واحدة : لا .. .. تحيا الملكة .

استطرد تراتيل قائلاً :

– قبضت عليهم جميعاً وبدأت التحقيق معهم . أعترف كل منهم على الآخر بجريمته . ورأيت أن أجنبهم الحياة العامة لحين تفتوني بما يجب أن أفعل بهم .

وقف واحد من المستشارين يقترح :

– الإعدام يا حكيم المملكة وقائد الجيوش .

نظر تراتيل إلى المجتمعين وسأل :

– هل توافقون على اقتراح الزميل ؟ ..

رفع الجميع أيديهم بالموافقة .

قال تراتيل : ولكني لن أعدم أي واحد منهم . سوف أجنبهم الحياة العامة ، وأمنعهم من مغادرة بيوتهم .

صفق الجميع استحساناً .

ثم قال تراتيل :

- تأتي المسألة الثانية ألا وهي إعادة الأملاك إلى الناس أصحابها . لقد كان هناك خطأ في أن تكون كل الأراضي والمصانع والمحلات ملك للمملكة . ضعف الإنتاج وأهمل الناس أعمالهم وتقلص الربح وانتقلت البلاد من حالة سيئة إلى حالة أسوأ . وهكذا أمرت بإعادة الأملاك إلى أصحابها .

صفق الحاضرون استحساناً .

ثم قال تراتيل :

- الآن تأتي المسألة الثالثة وهي مسألة جديدة . ألا وهي تعيينكم من قبل الكهنة ثم اختيار الملكة لأثنين منكما عن الجزيرة الواحدة . إن ما حدث هو أن الكاهن في كل جزيرة أختار عدة أفراد من النابهين القادرين وقابلتهم الملكة واختارت أثنين منهم . أنا أريد شيئاً غير ذلك . لا أريد للكهنة أن يتدخلوا في هذه العملية . أريد أن يقول الناس كلمتهم . يختار الناس من أهل المملكة من يمثلهم في هذا المجلس . قد يختار الناس بعضكم وقد يختارون آخرين . المهم هي كلمة الجماهير .

سأل أحد الأعضاء :

- وكيف يختار الناس وهم كثرة ونحن المتقدمين قلة .

قال تراتيل : سوف أفتح الباب لمن يريد أن يرشح نفسه للمجلس الاستشاري أن يتقدم خلال أسبوع . ويقفل الباب بعد ذلك . ونعرض على الناس أسماء المرشحين ويختار الشعب في كل جزيرة ثلاثة من المرشحين . ومن يحصل على الأغلبية من الأسماء سوف يكون عضواً في المجلس الاستشاري للمملكة .

عاد العضو يسأل :

- وكيف يتسنى للناس أن يختاروا .

قال تراتيل بثقة :

- فكرت في ذلك فوجدت أن يكتب ورقة باسم المرشح الذي يريده . يكتب أسماء ثلاثة . ويضع ورقته في صندوق . وبعد ذلك نعد الأسماء التي وردت ونعرف منها من حصل على الأغلبية وإذا كان واحد من الناس لا يقرأ و لا يكتب ، فإن رئيس الصندوق يكتب له تحت سمع وبصر الآخرين .

ثم سأل :

- هل توافقون ؟

رفع الأعضاء أيديهم بالموافقة .

قال : إذن عودوا إلى جزركم ، فهذا المجلس سيعاد تشكيله بإرادة الشعب . وشاكرين لكم حسن استشاراتكم .

بهت الأعضاء فلم يكن يدور في خلدهم أن مجلسهم سوف يحل .

•••

الفصل الحادي عشر
ولية العهد

أرسل تراتيل الحرس الملكي ليأتوا بالملك السابق من الجزيرة التي نُفي إليها . حينما دخل عليه الحرس كان شارداً وحينما أمروه برقة أن ينهض معهم لأنه مطلوب في جزيرة الحكم . أمتثل الملك السابق وقلبه يدق ، وفرائصه ترتعد. ماذا ستفعل به أبنته بعد أن نفته وأقامت عليه حرساً لا سبيل للإفلات منهم ، لكن رئيس الحرس طمأنه وطلب منه ألا يجـز ع . لقد طلب منهم زوج الملكة حكيم المملكة وقائد الجيوش أن يعامل معاملة الملوك . خفت دق قلبه . وأفترش البشر وجه الرجل .

استقبله تراتيل في الميناء ، وهو ينزل من السفينة الملكية . وصافحه بحرارة . وقال له : دعوناك لتكون معنا فأنت الأب ، وأنت الأصل ، وأنت الجذر . وأخذه في موكب ملكي إلى القصر الملكي . يدخله لأول مرة منذ سنوات . شعر بارتياب ، لكن دخوله حجرة الملكة الغائبة عن الوعي جعله يطمئن ، فهذه الأفعى الخائنة راقدة تتنفس ولا قوة لها . تقدم منها ولثم جبينها ، وقال : من فعل بها ذلك ؟ .. قال تراتيل وهو يقف قريباً منه : هذه نتيجة مصارعة أمواج البحر . لقد تحطمت بنا السفينة في يوم عاصف مطير . ولولا قربنا من جزيرة الذهب لكنا قد غرقنا مع من غرقوا . كلنا جميعاً الملكة وأنا وطاقم السفينة . لقد غرق الخدم لأنهم لم يكونوا يجيدون السباحة . قال الملك يسأل : ومن يرعاها ؟ .. قال تراتيل : الطبيب والطبيبة والخدم .

قال الملك : وأين أختها ولية العهد ..أين أخواتها ؟ .. لعلك لا تعرف أن لها ولية للعهد وأن كل ذريتي كانت بناتاً .

قال حكيم المملكة : يبدو أنها عاملتهم مثلما عاملتك . نفتهن مثلما نفتك إلى جزيرة بعيدة ، كنا نظن أنها نفتهن معك لكنك عدت دونهن . ثم سأله : من تظن يعرف أماكنهن ؟ .. قال الملك : لعل خادمتها المخلصة تعرف .

طلب تراتيل الخادمة المخلصة . دخلت عليهن امرأة عجوز شمطاء . عرف تراتيل من صوتها الأجش أنها تلك المرأة التي راودته يوماً وهي محجبة عن امرأة يقضي معها وطره في غابة الجزيرة غير أنه رفض . أكانت تراوده على جسد الملكة ؟ ..

سألها تراتيل : هل تعرفين أين تقيم ولية العهد وباقي بنات الملك السابق ؟ انتفض قلب الملك حينما سمع اسمه مقرونا بالسابق . إذاً فهذا الرجل لا يدعوه لأن يحكم . لعله يدعوه فقط لرؤية ابنته ويعيش بالقرب منها . وسمع العجوز تقول : نعم .. أعرف .إنهن يقمن في قصر قريب من هنا . قال تراتيل : أذهبي وأحضري البنات معززات مكرمات . انحنت المرأة وقالت : سمعاً وطاعة يا سيدي الحكيم .التفت تراتيل إلى الملك وقال : يمكنك أن تذهب إلى جناحك في القصر ، معززاً مكرماً ، فسوف تبقى معززاً مكرماً . ولن تنفى بعد اليوم . ستكون مواطناً عزيزاً في هذه المملكة . أنا لا يمكنني أن أعزل الملكة وأنصبك بدلاً منها ، فهي غائبة عن الوعي فقط . ولا يجوز أن أعاملها كما عاملتك . لعلك تعرف ما في هذا الأسلوب من قسوة .

عاد الملك السابق من جديد يلثم ابنته الراقدة غائبة عن الشعور . وفوجئ بها تفتح عينيها وتقول : أبي . ساحت الدموع من عين الملك السابق ، فمهما فعلت به فقد غفر لها . قالت الابنة : ضمني إليك . ضمها الرجل وضمته لأول مرة تتحرك يداها بعد طول خمول . كانت تأكل وتشرب تلقائيا دون أن تعي ما تفعل . وها هو وجود أبيها يبعث فيها الحياة والشعور . وبكت وهي لا تزال راقدة وقالت : أغفر لي . قال الملك السابق : غفرت لك يا ابنتي .

***

كان تراتيل يظن أن الملكة يمكن أن تعيد أباها إلى الحكم وتتفرغ لحياتها الزوجية ، لكنها لم تسمح بذلك . وحينما نشطت قواها الجسدية وصارت تذهب وتجئ . تمسكت بصولجان الحكم من جديد . غير أنها أقرت ما فعله زوجها من

القبض على المتآمرين وإعادة الأملاك إلى أصحابها وإظهار ولية العهد في المملكة . أما تراتيل فقد أرتضي لنفسه أن يقف مراقباً لأحوال البلاد بالإضافة إلى أنه حكيم المملكة وقائد الجيوش .

أفاقت الملكة من غيبوبتها كأنها شخص جديد . كأن ملكة الأرخبيل ماتت غرقاً وجاءت بدلاً منها ملكة أخرى ، أو كأنها دخلت آتوناً صهرت فيه وتحولت إلى إنسانٍ آخر . وفكرت أنها قد تموت . كانت تتصرف في الماضي كأنها لن تموت أبداً أما الآن فقد كانت على شفا حفرة من هاوية الموت . فإذا كانت قد أخفت ولية العهد عن الناس ، ومنعتهم من الحديث عنها وعدم ذكرها . فمن كان سيتولى العرش من بعدها . لن يقبل الناس أن يتولى تراتيل العرش ولو أنه قدير على القيام بمهمات الحكم . ذلك لأنه ليس من سلالة ملكية لذلك يجب أن تبرز ولية العهد أمام الناس .

ونادتها في اجتماع خبراء القوم وعليته وقالت :

- أنت ولية عهدي .

انحنت وقالت : أنا رهن إشارة مولاتي .

- أنا لا أريد أن تكوني بلا عمل . يجب أن يعهد إليك بعمل .

- وماذا تقترح مولاتي ؟ ..

- سوف تتولين شئون الحسبة في مملكة الأرخبيل .

- وما الحسبة ؟

قالت الملكة كأنها تحرج حكيمها : سلي تراتيل فهو يعرف .

تذكر تراتيل أنه طلب منها أن تقيم جهازاً يرأسه شخص أمين ليباشر شئون الحسبة . وتغاضت عن طلبه . ولم يتحرج إذ قال :

- الحسبة هي مراقبة الأسواق . يمعنى ملاحظة البائعين والمشترين والصناع والتجار والفلاحين في وقت تبادل السلع لنتأكد أن لا أحد يستغل الآخر

أو نعرف من يضغط على الآخر حتى يلتهم ما لديه من بضاعة أو ما لديه من مال بطريقة مشينة .

أسهمت ولية العهد وراحت تفكر : ها هي الفرصة جاءت إليك . إنها الطريقة الوحيدة لجذب الناس إليك . وحينما تتولين ها هو العرش في يدي ، يهتف الناس بحياتك .. وسقوط ملكة الأرخبيل المستبدة ، ولتحيا ملكة الأرخبيل العادلة . منذ زمن تفكرين يا فتاة في الاستيلاء على الحكم ، لكن الوسيلة في يدك كانت مفقودة . كانت يداك خاليتين من أي سبيل تساعدك على الاستيلاء .

سألت ولية العهد : وهل سأعمل وحدي أم معي آخرون ؟

قال تراتيل : أنت الرئيسة يا مولاتي صاحبة السمو . ويمكنك أن تعملي مع آخرين . أمعقول أنك سوف تجوبين مائة جزيرة وحدك . لا بد أن يكون معك حرس ، ولا بد أن يكون معك الكثير من المساعدين .

هزت المرأة رأسها وهى تشعر بالزهو . ونظرت ملياً إلى تراتيل إعجاباً . تمنت لو كان ذلك الرجل زوجها .

•••

خرجت ملكة الأرخبيل في نزهة في الأحراش ، ومعها تراتيل . وأمرت أن يقام معسكراً في الغابة . ونصبت الخيام . وذبحت الذبائح . وأعدت وليمة لتأكل منها الملكة وزوجها والحاشية الكبيرة .

قالت الملكة داخل الخيمة :

– أتعرف أنني أشعر الآن بالراحة . أشعر بالاستجمام تماماً .

– إنني لا أذكر أنك قمت بإجازة زهاء السنوات الماضية التي عرفتك فيها .

– لقد كانت الأحداث لا تمنعني من التقاط الأنفاس . وأهمها انفصال جزيرة البركان واستيلاؤها على جزيرة الصخر .

قال تراتيل : إن كاهن الجزيرة لا يزال يناوشنا . وصلتني أنباء تقول إنهم يغيرون على بعض الجزر . يحرقون وينهبون ولكن قواتنا تتصدى لهم . إنهم قوم معتدون بطبعهم .

قالت الملكة : ذكرني حينما نعود أن نأمر بتقوية الحراسات على الجزر المختلفة . لا بد من مواجهتهم بعنف . وعلينا أن نغير أيضاً على جزيرتهم .

نامت الملكة في سريرها المرتفع عن الأرض ، غير أن عقرباً كان يزحف خارج الخيمة فوق شجرة تطل عليها ثم سقط من الشجرة فجأة ليمر أثناء سقوطه من شباك الخيمة العلوي ليسقط في مهد الملكة . وشعر بالدفء وهو قريب منها فأنكمش . ولا مس فخذ الملكة العاري فشعرت به فهشته دون أن تدري ، فلسعها بذنبه ، فصرخت . أنتفض تراتيل في سريره المعلق . والملكة تمسك فخذها المشتعل بنار السم . ويضيئ تراتيل شمعة ويكتشفان الحقيقة أن تحت يدها عقرباً مقتولاً .. ينادي تراتيل الطبيب المرافق للقافلة فيسرع الطبيب لإسعاف الملكة ، لكنها ترتجف وترتعش وتنتفض وتكون يد الموت أسرع إليها من يد الطبيب .

الفصل الثاني عشر
الغارات المستمرة

تسلمت ولية العهد الحكم ، وقد زادت مناوشات جزيرة البركان ، وزادت الغارات . كل يوم تبلغ الملكة الجديدة حرائق ارتكبها مهاجمون من جزيرة البركان أو تدمير لمزروعات بالقرب من الشواطئ الخضراء ، أو مقتل بهائم أو بشر كانوا يزرعون في حقولهم غير شاعرين بالأخطار . وبلغت الملكة أن هناك أسلحة جديدة تمكن أهل جزيرة البركان من اختراعها . يستعملون سيوفاً مسمومة ما تكاد تلمس جسد الإنسان حتى يموت في الحال . وطلبت من تراتيل - قائد الجيوش - أن يبدأ في صناعة هذه السيوف ، وأن يعرف الأسلحة الجديدة التي اخترعها أهل جزيرة البركان النابهين . وأرسل تراتيل الجواسيس لاستطلاع ذلك السلاح ، ودعمهم بالأموال ليشتروا ذمم أهل جزيرة البركان ، لكنهم فشلوا في الحصول على شخص يدلهم على السلاح الجديد . وتأكد تراتيل أنها إشاعة أطلقها أهل جزيرة البركان في أسواق الجزر حتى يثيروا الرعب في النفوس .

قسم تراتيل وقته في الصباح في تفقد أحوال الجيوش والحراسات في الجزر المختلفة . وفي المساء بالاجتماع بأهل الجزر المختلفة ليناقش معهم أمور الدنيا والدين . شعر تراتيل فجأة أن عليه أن يبشر بدين جديد . دين يتجرد من عبادة النار أو الماء أو الهواء أو التراب . دين يتجه بكامل قواه إلى رب واحد أزلي لا يمكن قهره يحرك الأكوان بقوة ويسيطر عليها سيطرة كاملة حتى النخاع . وطلب من الناس أن تصلي لهذا الإله لأن في الصلاة توحد بينهم وبين خالق السماء والأرض والكواكب والنجوم . آمن الناس بدين هذا العبد المتعبد . وكان يقيم الصلاة ليلاً . ويعمل في الصباح . وسمعت الملكة بهذا الدين الجديد الذي ينادي به تراتيل ونادته في مقرها وسألته :

- إلى ماذا تدعو يا قائد الجيوش ؟

قال : إنني أدعو إلى إله واحد . نعبده . ونسير في ركابه بما فطره فينا .
– وماذا فطر فينا ؟ ..
– فطر حب الخير والبعد عن الشر . فطر فينا الاتجاه إلى الفضيلة والنزوع بعيداً عن الرذيلة . فطر فينا فعل الحلال والابتعاد عن الحرام .
سألت الملكة : وكيف تعلل وجود شريرين رذلاء فاعلي الحرام ؟
– – إنه مثلما خلق الصحة خلق المرض . وهؤلاء مرضى في النفس . والفضلاء الخيرون وفاعلو الحلال أصحاء .
– ولم خلق المرض والصحة ؟
– إن المرض والصحة هما نتيجة التدافع في الحياة .فإذا انقطع ذلك التدافع فلن تكون هناك حركة سنكون كالصخر الجامد أو الأجرام السماوية ذات الحركة الرتيبة لا تنتهي ولا تتوقف ولن تتوقف . وهكذا يؤدي التصادم إلى الحوادث ويختفي الملل وتختفي الرتابة . وينشأ من الحوادث والصدمات ما فيه خير وما فيه شر . وما يعاكس مصلحتك فيصير شراً . وما يوافقها يعتبر خيراً . وإذا نظرنا إليه من زاوية الجماعة فهو خير أو شر بحسب ماذا مس المصلحة بالضرر أو بالنعيم .
كانت تنظر إليه بعمق . تحسده على طلاقة لسانه . وقالت أخيراً :
– أتجد أن حياتك هي الأخرى خالية من الحركة ومليئة بالرتابة ومفعمة بالملل .
– أبداً . أنا في الصباح بين الجنود أشاهد المجتهد منهم وألاحظ الكسول . وفي الليل أعظ الناس . أعرف المؤمن وأعرف الكافر . أجادل الأخير وأثني على الأول .
– لكن ينقصك شئ هام . شئ تنادي به الفطرة .
– ما هو ؟
– الزواج .

- ومن تتزوج أرمل . ترمل مرتين . المرة الأولي حينما اختفت زوجه في ظروف غامضة . والمرة الثانية حينما ماتت عقيلته .

- هل أدلك على واحدة ترضى بك ؟

- دلني .. وأنا رهن بنانك .

-إنها الآن أمامك .

تلفت حواليه ولم يجد أحداً سواها . قال :

- لا يوجد غيرك يامولاتي .

- أنا .. يا مولاي .

***

زفت الملكة إلى تراتيل . حكيم الأرخبيل وقائد الجيوش . وابتهج الناس لأن الحكمة تزوجت من السلطة . ولأن واحداً منهم صار ملكاً .

***

حينما عقد مجلس الحكماء - كما سماه تراتيل - عن طريق اختيار الشعب لهم . وقفت الملكة على المنصة تخطب في الحكماء وعن يمينها وقف تراتيل يستمع . .

قالت : قررت أن أذهب إلى جزيرة البركان . سوف أعقد صلحاً مع كاهن الجزيرة . أنا لا أرضى أن تستمر الحرب بيننا . ولن أعود حتى أعقد الصلح .

شعر تراتيل بالارتياح لأنه كان ممتعضاً من سفك الدماء الذي لا يتوقف .

سافرت الملكة وحدها إلى جزيرة البركان . وأبحر قارب من السفينة وهى على بعد فرسخ من الجزيرة . كانت الجزيرة الوحيدة التي يحكمها كاهن . أما باقي جزر الأرخبيل فقد عزل تراتيل كل الكهنة ، وجعل لكل جزيرة حاكماً مدنياً .

امتثل الرسول أمام الكاهن ، أبلغه أن ملكة الأرخبيل الجديدة تريد أن تعقد صلحاً بينها وبين الجزيرة . تهلل وجه الكاهن كأنما عثر على شعلة النار الدائمة الخالدة .

وعاد الرسول يعلن الملكة بقبول الكاهن . شعرت بالغبطة كأن خطتها نجحت . هل يمكن أن تستعيد السيادة على الجزيرة ؟ ..إنه حلم ، ولكن لا بأس أن تحلم . إن كل ما تطمع فيه الآن أن تتوقف جزيرة البركان عن الاعتداءات على جزر الأرخبيل .

اجتمعت الملكة والكاهن وجرت المناقشة بينهما هادئة . وتعمدت أن تسمع أكثر مما تتكلم . وتعمد الكاهن أن يتكلم أكثر مما يصمت . وكانت قد اعتنقت الديانة التي ابتكرها تراتيل ، غير أنها قبلت أن تدخل المعبد وتقف أمام النار الزرقاء تلك التي يعبدها أهل جزيرة البركان . وسخرت منها في سرها إذ من الصعب على من يعبد إلهاً مجرداً من كل مادة أن يعبد إلهاً هو مادة يمكن القضاء عليه بنفخة هواء أو كوب ماء أو حفنة تراب . قالت : أيتها النار إن صفيحة من الماء تسكب عليك تقتلك إلى الأبد . ألم يبللك تراتيل من قبل بالماء وأخمدك . وخرج من الجزيرة وقد اطفأك . عجباً لهؤلاء البشر ألا يعرفون أن النار تولد وتنطفئ . أين رأوا من قبل ناراً لا تولد أبداً ولا تنطفئ .

وقعت الملكة أتفاقية مع الكاهن ألا يتعرض أهل جزيرة البركان بالعدوان على شعب مملكة الأرخبيل . واتفقت أيضاً على ألا تطالب المملكة بضم جزيرة البركان إليها . وعادت الملكة إلى جزيرة الحكم رافعة الرأس . وشعر الناس لأول مرة أن الحرب قد انتهت وأن السلام قد عم . وسألت الملكة تراتيل :

- ولم لم يجعلها سكون إلى الأبد . كان قد استراح وأراح .
- من هو ؟
- إلهك يا تراتيل .
- إنه إلهك أيضاً يا ملكة الأرخبيل .

ثم توقف وسأل : أتعرفين السبب ؟
قالت : لا .. بطبيعة الحال .
- ذلك لأنه لا صورة له ولا جسم ولا زمان . أزلي . سرمدي ، فهو ثابت لا يتغير ولما كان قادراً لذلك خلق شيئاً مغايراً له . له جسم وله صورة وله مكان وزمان . زائل . فقاعة وسط فقاقيع . بل فقاعة متنوعة الأشكال والأحجام والأماكن والأزمان . وهو في كل لحظة يضيف أشكالاً وأحجاماً جديدة . والزمن يجري والمكان يتغير ويتلون ويتبدل .انظري إلى الإنسان الزائل الفاني ما يطمع فيه هو أن لا يموت أبداً ويخلد في الأرض ، فألا يدلك ذلك على أن العكس كان في البداية .إن الإنسان الفاني يتطلع لأن يماثل الإله الأبدي .
قالت تعدل من مجرى الحديث :
- ألم تحس بالوحشة وأنا بعيدة عنك زهاء الأيام التي قضيتها في جزيرة البركان .
قال : شعرت .
سألت : وما هو رأيك فيما أنجزت ؟
قال : إن أهل جزيرة البركان معروفون بالغدر . ويمكن أن ينقضوا اتفاقهم . وتعود من جديد الحرب والعدوان وسفك الدماء والضحايا .
- إذاً فما ذا ترى ؟
- إني ذاهب إليهم . ولن أعود إلا إذا عادت جزيرة البركان إلى مملكة الأرخبيل .
واتفق تراتيل مع نائبه أن يلحق به أعداداً من الجنود بأسلحتهم خفية عند الطرف المهجور من جزيرة البركان .
وعبر تراتيل بقاربه الصغير إلى جزيرة البركان ، تسلل سراً دون أن يدري أحد به فيها .

في نفس الوقت هاجم جيش جزيرة البركان إحدى الجزر التابعة لمملكة الأرخبيل وهى جزيرة النسمة واحتلها . وجعل علية أهلها أذلة . ووصل إلى سمع ملكة الأرخبيل الأنباء ، فعقدت مجلس الحرب ، وتولت قيادة الجيش ، وأعلنت الحرب من جديد على جزيرة البركان . لكن ذلك لم يمنع تراتيل من مواصلة مهمته في جزيرة البركان التي عزم على القيام بها .

الفصل الثالث عشر
الملهم في جزيرة البركان

قال تراتيل في جمع صغير من أهل جزيرة البركان :

- أقول لكم هو الإله ، ذلك الذي فاض منه النور ولا يزال يفيض . ومن النور كان كل شئ . لا تراه ، لا تحسه ولا تلمسه ، ولكنك منه وإليه . لا يتشكل ولكنه يشكل النور الذي أنبثق منه . يشكله في صورة كواكب باردة ونجوم حارة . يشكله في صورة أرض . تعج بالماء والهواء والتراب والنار . تمتلئ بالنبات والحيوان والإنسان . تتجه إليه كل الكائنات وهو يحتويها كلها بلا استثناء . لا تعرف أنها منه ، وهو يعرف . يمكن أن تدركه إذا تمعنت النظر . إذا صليت له . تشعر وأنت تتوحد معه كأنه فيك وأنت فيه .

قاطعه أحد عبدة النار :

- أليست نارنا تفيض بالنور ؟ ..

- لأننا كلنا من النور نفيض بالنور . ألا تري عين القط تومض في الظلام ، فهل عينه هي الإله ؟

بُهت الرجل وسأله آخر :

- كيف لا يموت وكيف يحيا ؟

- أتظن أن كل شئ يحيا وكل شئ يموت ؟ .. نعم . هذا حق . لكنه ليس شيئاً . إنه ببساطة لا يموت ولا يحيا لأنه لا جسم له ولا صورة ولا زمان ولا مكان . إنه ليس بشراً ولا مثل البشر .

- إذاً أين يقيم ؟

- يمكن أن تقول لي من لا مكان له أين يقيم ؟ ..

فكر الرجل وصمت ولم يستطع الإجابة . سأله آخر : هل أتصل بك ؟

- أنا رجل فقير صياد . يمكن أن يكون قد ألهمني لأني أكثر تفكيراً فيه وها أنذا أنقل لكم ما ألهمني به .

سأله رجل في آخر الصف :

- كيف إذاً نصلي له ؟ ..

-خاطبه كأنه معك . وهو فعلاً معك لكنك لا تراه . أنت جزء منه ولو أنك نفس قائمة بذاتها . بثه كل مشاكلك . طالبه أن يلهمك بحلول لها . أطلب منه ما تحب ويبعد عنك ما تكره فهذه هي الصلاة .

كان تراتيل يفيض بالحكمة ، وهو يراقب عيون الناس ، ويسبر أغوارهم . لعله يعرف من معه ومن منهم ضده ، ومن أقتنع ومن لم يقتنع . وكان تراتيل يقيم الصلاة للإله الواحد في الليل بينما هناك نفر مما أنضم إليه يراقب المصلين ويفحص المكان ، فقد كان تراتيل يشعر بالخطر في كل وقت . وكانت خطة انضمام بعض الجنود المدربين من جزيرة الحكم مستمرة لا تتوقف . ينضمون إليه فرادى يندسون وسط الصفوف ويخبئون أسلحتهم في أماكن مهجورة ، ينضمون إليه على أنهم صيادون وهو معلمهم .

وكانوا في الصباح يخرجون معه في قوارب للصيد ، ويبيعون حصيلة الصيد في الأسواق . وفي الليل يستمعون إلى حكمة تراتيل وعيونهم تحرس المكان . ثم يراقبون المصلين مع تراتيل من أهل جزيرة البركان . ويصلون بعد ذلك ونفر من المخلصين يراقبون وهم يصلون ، لكن أغلب المصلين لم يكونوا يدركون أن هناك من يراقب ، فقد كانت المراقبة تتم بصفة سرية .

•••

تسلل واحد من الجمع ، وكان يصلي معهم والملهم يتصدرهم ويقول تراتيله وهم يرددونها بعده . وأتجه إلى معبد النار يركض . ودخل على الكاهن الكبير ينهج ويلهج ، وسقط بين قدميه وهو يقول :

- سيدي إن هناك رجلاً يدعو بين الناس لدين جديد . يقول إن هناك إلهاً غير النار هو الذي خلق الكون والكائنات .

حملق الكاهن في الرجل وقال :

- ما أسمه ؟

- لا أعرف . لكنه يقول درسه كل يوم في المساء . ويكفر بالنار منشئة لكل الأكوان .

-إذاً فهو يستحق سفك دمه .

أمر الكاهن جنوده التابعين له أن يداهموا مكان هذا الداعية ، وأن يقبضوا على الذين معه .

تحركت قوة من الجند في الظلام ، غير أن العيون الراصدة رصدتها . وأشار رئيسها إلى تراتيل بالخطر بإشارة متعارف عليها . وأنفض السامر قبل الميعاد .غير أن الحراس حاولوا القبض على المصلين فتصدى لهم الواقفون للمراقبة بعيداً عن مكان الصلاة . والذين يصلون مع تراتيل انضموا إليهم . اشتبكوا بالخناجر . ولا يدرون كيف واتتهم الجرأة على العراك . وسالت دماء الجنود وسالت دماء بعض المراقبين . وحاول الجنود أن يعثروا على الداعية فلم يجدوه .بل حاولوا بعد حين أن يجدوا هؤلاء الذين اشتبكوا معهم فلم يحصلوا على أثر لهم . كما أنفض جمع المصلين بأسرع مما تصوروا . فهكذا علمهم تراتيل أن عند الخطر - ولا بد أن الخطر آت - لا يبقى واحد في المكان . لأنهم لا يزالون قلة وسوف يفتك بهم . وعثر الجنود الباقون بعد المعركة على جثة المرشد وقد فصلت رأسه عن جسده . وحملوا الجثث إلى الكاهن حتى يقرأ عليها ترانيم النار وتحرق في الآتون .

***

أختفي تراتيل في غابة الجزيرة . التقى هناك برفقاء السلاح في الأحراش . وهنأهم على النصر . واتفقوا على ألا يتجمعوا ويتفرقوا حتى لا يوشى بهم الواشون وذلك إلى حين .

وعاد تراتيل يعمل بالصيد أكثر مما يدعو الناس إلى الدين الجديد ، ويأخذ حذره من الوشاة . وصار كل واحد من الرفقاء الأكفاء يدعو في قرية من قري

جزيرة البركان . حتى انتشرت دعوة تراتيل بين الناس . والكاهن لا يزال يعلم بها ، ولكن الدعاة دائماً يفلتون من قبضة رجاله ، مما أثار حفيظته وجعل مركزه يتزعزع بين حاشيته . ولاحظ بمرور الوقت أن عدد المترددين على المعبد بدأ يقل .

لكن كاهن الجزيرة لم يترك الدعوة تستفحل ، رغم ما يصله من أنباء أن الناس صاروا يصلون فرادى وجماعات دون أن يكون بينهم الملهم المزعوم . وطلب من رجاله التخفي والتسلل في الجماعات ليعرفوا ذلك الملهم ، ويقبضوا عليه ويحضروه إليه .

فعلاً ترصد الجواسيس تراتيل ، حتى سمعوه وهو يناقش بعض أهل قرية من القرى في كون النار مخلوقاً مثلها مثل الهواء والتراب والماء . وتركوه يحاضر الحاضرين ، حتى عاد من جديد إلى كوخه الذي بناه بين الأحراش ، فالتفوا حوله ، حتى سقط في أيديهم .. ورغم أن بعض رفاقه شاهدوهم وهم يقبضون عليهم ، غير أنهم لم يتدخلوا . وهم يقتادونه إلى الكاهن الكبير ، مقيداً بالأغلال من خشية أن يفلت منهم .

ومثل الكاهن الكبير في الحال ليرى الداعية :

- من أنت ؟

- أنا صياد .. أقتات من صيد الأسماك وبيعها في الأسواق .

يتأمله بوضوح وبعمق .

- أين رأيتك من قبل ؟

لم يذكر أنه رآه لأول مرة مع الملكة السابقة ، كانت الثياب مختلفة والهندام متغير ولم تكن له عين ثاقبة . ثم قال الكاهن حينما لم يجب تراتيل :

- ألا تحضر الموكب المقدس للنار المقدسة ؟

قال تراتيل باستهزاء : ولم أحضر؟ ..

قال الكاهن متبرماً : لتتعبد للنار وتقدم فروض الطاعة للإله .

قال تراتيل ضاحكاً : من الإله ؟

- النار .

قال تراتيل : إن نفخة ريح يمكن أن تطفئ هذه النار . ودلو ماء يمكن أن يخمدها إلى الأبد . بل عفر عليها ترابا ، فلن تجد لها أثراً .

غاض الدم في وجه الكاهن ، لكنه تحامل ، وحاول أن يكتم غضبه ، فقال :

- إن هذه النار .. ما هي إلا رمز للنار الخالدة الأزلية ! ..

قال : أين هي ؟ ..

- قرص الشمس دليل عليها .

- إذا لم لا تعبد قرص الشمس .. وكيف تعبده وهو يأفل في الليل ؟ .. أتكون الدنيا بلا إله في الليل ؟

أرتبك الكاهن وراح يقول :

- هذا كافر . اقتلوه .

نادى على الحرس ، فلم يلب أحد . كان الحرس يتعاركون مع رفاق تراتيل . معركة دامية . ظهر فيها الخنق واضحاً والطعن جلياً . والدم ينبثق . والصراخ يتعالى . ويستطيع جنود تراتيل أن يقضوا على الحرس . ويدخل ثلاثة منهم ليفكوا أسره . والكاهن يقول : خذوه فاقتلوه .

غير أن واحداً منهم سدد خنجراً في قلب الكاهن . رشقه عن بعد فأستقر في الجسد . وهو يقول :

- لم لا تكلم النار الخالدة السرمدية أن تنقذك من الموت . يا عدو الإله .

وفكت قيود تراتيل . وانصرفوا جميعاً عائدين إلى الأحراش .

الفصل الرابع عشر
الملكة تستبد

لم تكوني تحلمين أن تكوني ملكة لولا هذه العقرب التي لدغت مولاتك . وها أنت تتولين الحكم في شرخ الشباب وقد ودعته هي في مقتبل العمر . لقد خسرت حياتها وأنت كسبت الملك . الغريب أنها لم تخلف ولياً للعهد أو ولية له . وأنت أيضاً لم تعقبي . أتكون العائلة جدباء ؟ .. أنت أيضا لم تنجبي طفلاً رغم زواج دام سنتين .

بينما كانت الملكة تفكر ، دخل عليها قائد جيوشها الجديد بعد أن أنسحب تراتيل يخبرها أن كاهن جزيرة البركان قد قتل . وأن الكاهن الجديد سلط جيوشه على جزيرة الصخر مرة أخري واستولى عليها وطرد الحامية التابعة لمملكة الأرخبيل . وأنه بذلك حنث بالعهد الذي قطعه على نفسه الكاهن القديم في ألا يتعرض بالعدوان على جزيرة الصخر مقابل ألا تتعرض ملكة الأرخبيل لسيطرته على جزيرة البركان . وقد كان هو الآخر قد ثلم اتفاقه واستولي على جزء من جزيرة النسمة . نهضت الملكة فزعة ، وتمالكت نفسها ، وأخفت غضبها وسألت :

-أتعرف الخطة التي استولى بها تراتيل على الجزيرة من قبل ؟ ..

- إنها محل دراستنا في مراكز التدريب بالجيش يا مولاتي .

- إذاً أتبعها . ولتسترد جزيرة الصخر فوراً بل جزيرة البركان لو أمكن .

- إن جزيرة البركان يعمل فيها مولاي تراتيل يا صاحبة الجلالة .ونحن نبعث له بالرجال من حين لآخر يدخلون خلسة بأسلحتهم البيضاء متخفين في هيئة صيادين . وذلك حتى لا يرتاب أهل الجزيرة فيهم ويبلغون حكامهم ، لذلك بعد سنة كاملة سوف يصبح تعداد المنتمين إلينا يزيد على تعداد سكان الجزيرة وسوف ينشر مولاي تراتيل دعوته وسط الناس فيذرون عبادة النار ويميلون إلى

مملكة الأرخبيل . وحينما يصبح المتمردون أقلية فسوف يستولي مولاي تراتيل على الجزيرة .

- أنا أعرف هذه الخطة جيداً . وعليك ألا تهادن هؤلاء الخبثاء مرة أخرى .

- سمعاً وطاعةً يا مولاتي .

•••

قامت قوات مملكة الأرخبيل بمحاصرة جزيرة الصخر من كل جانب . ولم يفلح جنود جزيرة البركان في المقاومة . كان جنود المملكة قد التحموا معهم في معركة ضارية . وبوغتوا وهم نيام .وتم استرداد الجزيرة مرة أخرى . وفوجئ حاكم جزيرة الصخر من قبل الملكة أن حكام جزيرة البركان قد نهبوا مناجم الذهب في الجزيرة ومناجم الحديد والرمال البيضاء فيها تلك التي يصنع منها زجاج القصور . وكأن الملكة أرادت أن تسترد ما أختلسه حكام جزيرة البركان ، ففرضت ضرائب جديدة على أهل المملكة ، ففجع الناس بالقرار . خرجت الجماهير تعترض على هذه الضرائب الفادحة ، وأحاطت قصر الملكة من كل جانب حتى من البحر . أحاطوه بالقوارب المزدحمة بالصيادين ، وهم يهتفون : تسقط الملكة المستبدة .: لأول مرة يتجرأ الشعب على هذا الهتاف . بل لم يحدث ذلك في فترة حكمَ الملكة السابقة إلا نادراً .

خرجت الملكة إلى الشعب . وسألت المتقدمين في صفوف المظاهرة : ماذا تريدون ؟ ..

قال واحد منهم : إلغاء هذه الضرائب .

قالت بعد تفكير : وأنا ألغيتها .

صاحت الجماهير تهتف بحياة الملكة . واستغرب المتظاهرون بالقوارب كيف كانوا ينادون بسقوطها . والمتظاهرون في البر ينادون بحياة الملكة . إلى أن وصلهم الخبر بإلغاء الضرائب فطفقوا يهتفون بحياتها .

حينما اجتمعت الملكة بوزير خزانتها سألها :
- ماذا سنفعل لسد نفقات الحرب ولا سبيل أمامنا إلا الضرائب وجلالتك ...
قالت تقاطعه بخبث :
- لا تعلن عن الضريبة . ولا تعممها . إنما حاصر فئة من الناس بها وبعد ذلك فئة أخرى . ولن يشعر الناس بثقلها لأنهم لن يدفعوها إلا فرادي وفي أوقات متباعدة . وهكذا ستكون لديك إيرادات تغطي المصروفات .
ابتهج وزير الخزانة برجاحة عقل الملكة .

•••

تقرر انتخاب مجلس الحكماء الثاني . وقد انتهى عمر المجلس القديم حيث جعله تراتيل ثلاث سنوات . اجتمعت الملكة مع رئيس الشرطة وقالت :
- كان المجلس السابق يحاسبني ويحاسبكم كثيراً . أريد أن يكون رجال المجلس القادم من رجالي . أو رجالاً ينتمون إلىَ وحدي .
- كيف ذلك يا مولاتي ؟
- هل أعلمك . أدعي أن الانتخابات تمت . وأن من فاز فلان وهو أحد رجالنا . هكذا في كل جزيرة . من سيفتش وراءنا .
- سمعاً وطاعة يا مولاتي .
كانت الانتخابات تتم بأن يجتمع أهل الجزيرة في ساحة واسعة في مكان فسيح تملؤه الخضرة والحشائش . ويقررون اختيار ثلاثة برفع الأيدي من الناخبين أنفسهم لعضوية مجلس الحكماء . ويقر حاكم الجزيرة أن ذلك الشخص قد تم اختياره إذا حاز على أغلبية الأصوات . وهكذا يعرض أسم أسم ويحصى عدد المصوتين لكل أسم ويفوز من حصل على أغلبية الأصوات . كيف سيزور رئيس الشرطة أمام الجمع الكبير . بدا الرجل حائراً حتى أهتدي لفكرة راقت في ذهنه . سيمر الجند على الناس ليلاً ويلقونهم بمن اختارته الملكة وعليهم اختياره

وإلا تعرضوا للعقاب . وفي الصباح يعلن الناس اختيارهم لهؤلاء الموعودين . ومن يلاحظه الجند أنه لم يوافق تعرض للتنكيل .

وهكذا جرت الانتخابات في كل جزيرة . يعرض أمام الناس أسم مرشح والمرشح ذاته ، فلا يرفع الناس أيديهم . وحينما يشير مندوب رئيس الشرطة إلى المرشح الموعود . يتنافس الناس على رفع الأيدي . بل كان البعض يسخر ويرفع يديه ويخرج لسانه إمعانا في السخرية . وكانت عيون الجنود تترصد من يتجرأ ولا يرفع يده في الوقت الذي يجب أن يرفع فيه يده . وفي الليل يمر الجنود على البيوت ويجلدون من تمرد على أوامر رئيس الشرطة ليكون عبرة لمن يخالف مستقبلاً .

وكان المجلود يرفع صوته وهو يقول صارخاً : أين أنت يا تراتيل ؟ .. أين أنت يا تراتيل لتنقذنا من هذا الظلم ؟ .. فيزيد الشرطي لسعاته بالسوط حتى يكف عن الصراخ . ولم يحدث أن خاب نظر الشرطة في رصد المتمردين على الأوامر . فقد كان عدد الأفراد صغيراً ويمكن حصره بالعين المجردة في أدنى الحالات لا يقل عن مائة فرد وفي أقصى الحالات لا يزيد عن خمسمائة فرد .

ولم يغب عن رئيس الشرطة أن يمر على من وقع عليه الاختيار ليقول له إن الملكة قد اختارته ليكون عضواً في مجلس الحكماء ، وعليه أن يدين لها بالشكر والعرفان بالجميل . ويعاهده أن يصدق على قرارات الملكة دون معارضة .

شعرت الملكة بالفخر وهي تتقدم الجميع المتجهين إلى مجلس الحكماء . وفي المجلس شعرت أن الكل خاضع لها ولن يعارض في قراراتها .

قالت هامسة :

- ويجب ألا يعارضني أحد من الرعايا أنفسهم .

قال رئيس الشرطة :

- وهل أحد يعارض يا مولاتي ؟!

قالت : سوف أختبر الرعايا في ذلك ؟

استغرب رئيس الشرطة وسأل : كيف يا مولاتي ؟ ..

- سوف آمر بوقف ذبح اللحوم شهراً كاملاً . لن تذبح بقرة أو جاموسة أو خروفاً أو حتى حماراً زهاء شهر كامل . ومن لا يطيع سوف أنكل به .

وأذاع رئيس الشرطة القرار . وأطلق العيون تراقب الناس . ومن كان يضبط يأكل لحماً يقاد إلى ساحة الجزيرة وهناك يجلد أمام أعين الناس . بينما كانت الملكة تأكل اللحم على مائدتها ولا يجرؤ أحد أن ينهاها عن ذلك .

داعبها رئيس الشرطة وهو يجلس إلى مائدتها :

- أننفذ أمرك يا مولاتي ...

قطع كلامه وعرفت الملكة قصده فقالت :

- إن الإله نظم الكون بالقانون . هل يخضع هو لذلك القانون ؟ .. إن من يصدر القانون لا يخضع له . ذكرني حينما يأتي تراتيل من جزيرة البركان أن أقول له هذه الفكرة . لعله يضيفها إلى أفكاره .

- ماذا ستقولين يا مولاتي ؟

- سأقول له إنه لا يجوز أن نفكر أن الإله يخضع للقانون الذي وضعه . القانون الذي يحكمنا يسري علينا فقط ، ومن ثم لا يجوز أن نتصور بركاناً أو زلزالاً أو ناراً أو شمساً هو الإله فكل هذه الأشياء تخضع لقانون معين لا تخرج عن حدوده . ولو كانت هي التي تصدر القانون لتغير الوضع ولاحترنا فيما تخضع له من قوانين .

إنني سأكتبها يا مولاتي حتى لا أنسى .

وأمر خادماً يقف بالقرب منه أن يناوله قرطاساً وقلماً ليكتب فكرة ملكة الأرخبيل .انحنى الخادم وراح ينفذ الأمر .

***

وصلت أنباء استبداد الملكة إلى تراتيل ، مع المجموعات التي تتسلل داخلة جزيرة البركان من جنود مملكة الأرخبيل .. كانت هناك كلمة سرية يكتشف بها تراتيل انتماء الجندي إليه وهي " أرخبيل " فإذا ما تلفظ بها وهو يتعرف على تراتيل لأول مرة عرف تراتيل أن هذا الجندي جاء لينضم إلى صفوف المجاهدين ضد تمرد جزيرة البركان .وينطق بكلمة السر مرة أخرى ثم ينضم إلى صفوف المقاومة . ويعمل الجندي على أن تكون له امرأة من نساء الجزيرة وينجب منها أولاداً .بل ويعمل في داخل دولاب الحكم لو تمكن . كانت خطة تراتيل أن يذوب أهل الجزيرة في القادمين من جزر الأرخبيل ، ويدينون بالولاء للملكة ومملكة الأرخبيل ثم ينقلبون بعد ذلك ضد المسئولين عن جزيرة البركان وتعود الجزيرة إلى مملكة الأرخبيل دون حرب .

قرر تراتيل العودة إلى جزيرة الحكم . وترك في الناس دينه الجديد يسري كما يسري الماء في أعواد وفروع الشجر . وكلف أحد الضباط النابهين بقيادة الجنود المنبثين في الجزيرة .الخناجر تحت ثيابهم والعتاد الحربي مدفون في مكان معلوم والابتسامة على شفاههم . واستمالة الناس سبيلهم .

غادر الجزيرة سراً . وأبحر بقاربه الصغير حتى بلغ جزيرة الحكم . أوقفه جنود الحراسة عند الشاطئ . وسألوه عن هويته . أجاب كلمات معدودة : أنا تراتيل يا فتيان . عظمه الجنود بسلاحهم برفع السيوف أمام وجوههم . ومضى تراتيل إلى القصر بأسماله البالية القذرة . فقد كانت هذه من وسائل تخفيه أن يمضي بين الناس فقيراً معدماً يعظ ، ويسأل : من فيكم ينكر الحق ؟ .. والناس مسحورون بكلماته . دخل على الملكة بأسماله ، فوقفت مشدوهة . وجرت إليه ، وضمته بشوق وحاشيتها تراها ولا تقدر على الاستنكار . كانت قد أقامت حفلاً كبيراً بمناسبة انتصارها واستردادها لجزيرة الصخر وعزمت على استرداد جزيرة النسمة لكن أجلت ذلك حتى تحتفل بالنصر . والتف الوزراء حول تراتيل يضمونه إليهم غير مبالين بأسماله البالية إعجاباً وافتخاراً به

وتمجيداً له . لقد وصلتهم أنباء مقتل كاهن جزيرة البركان ، وعرفوا أن تراتيل كان وراءها .

انفض السامر ودخل تراتيل إلى حجرة نومه ومعه ملكة الأرخبيل امرأته .

قالت الملكة : لقد افتقدتك هذه الشهور الطويلة .

قال تراتيل : وما كدت أختفي حتى تتسلطي على الناس .

امتعضت الملكة وقالت : كيف ؟ ..

قال تراتيل : أثقلت كاهل الشعب بالضرائب . ميزت بين العسكر والشعب . جوعت الشعب وأنت تنعمين في الرخاء . أنفقت ببذخ على الحفلات الخاصة وحرمت الشعب من الخدمات . أفسحت السبيل أمام الفاسدين ولم تطبقي عليهم القانون . وما زاد الطين بلة إلا الضغط على الناس ليختاروا رجالك في مجلس الحكماء .

بُهتت الملكة وهي تسمع مخازيها . واستغربت أن تبلغ كل هذه الأخبار مسامع تراتيل وهو بعيد عنها .

انفجرت غاضبة وقالت : لا تنس أنني الملكة .

قال تراتيل : وأنا لا أقبل أن أكون زوجاً لملكة تستبد .

سألته : وماذا ستفعل إذاً ؟ ..

قال تراتيل : إن لم ترتدعي ، فأنا فاعل ما يلهمني به الإله :

قالت تسخر منه : وأين هذا الإله الذي يلهمك ؟ ..

صفعها صفعة قوية أسالت الدم من شفتيها .

●●●

الفصل الخامس عشر
اعتزال تراتيل

أعتزل تراتيل الملكة ، ولكنه لم يعتزل الناس . صار يجوس في الأسواق كل يوم ، يجتمع بالناس بعد أن تنتهي أعمالهم ، يعظهم ، ويدفعهم للتمسك بحقوقهم . ولم تستطع أن تطلب منه الملكة الطلاق ، كانت تحافظ على عرشها ، وتخشى إذا طلبت الطلاق من تراتيل ، وطلقها ، تأثرت هيبتها بين الناس ، لذلك قبلت اعتزاله ما دام يدخل ويخرج من القصر وينام ويأكل فيه ، ويحضر في بعض الأحيان اجتماعاتها مع الوزراء والقادة ومجلس الحكماء ، ولكن لا يقربها أبداً .

قال تراتيل لجمع من الناس :

– أريدكم أن تعرفوا أننا جميعاً سواسية . لا تفرقة بيننا بسبب الجنس أو الأصل أو اللغة أو الدين أو العقيدة . أنا لا أجبر أحداً أن يعتنق ما أعتنقه . ولن يجبرني أحد على أن أعتنق ما يعتنقه .

تدخل أحدهم وقال :

– لكن سمعنا أنك حطمت الأصنام وأطفأت النيران المقدسة . ألا يعد ذلك مساساً بالعقائد ؟ ..

قال تراتيل بهدوء :

– كنت في البداية غير مقتنع أن يرمز لربي الإله بصنم أو يقال عنه إنه نار سرمدية . إننا نرى الأصنام لا تنطق ولا تتكلم ولا تسمع ولا تري فكيف نرمز إلى الإله الذي يتكلم ويسمع ويري أكثر مما نسمع ونتكلم ونرى .

تدخل آخر وسأل : كيف ؟ ..

سأله بدوره : ألسنا جزءاً منه ؟

هز الرجل رأسه محتاراً بالإيجاب فواصل تراتيل كلامه قائلا : والدليل على كلامي أنه ليس معقولا أن من خلق السمع والبصر والحس ليس بقادر على أن يسمع ويبصر ويعي لكنه ليس كمثل الإنسان إنما أكثر تفوقاً منه بمراحل لأنه يسمع آلاف البشر وغير البشر في وقت واحد ويميز بين أصواتهم ويبصرهم في وقت واحد ويدرك كل شئ عنهم في وقت واحد لذلك يختلف سمعه وبصره عنا . وقد كنت أحطم الأوثان آية للجميع فهي لم تفعل شيئاً ضدي . ولن تفعل لأنها حجارة أو صلصال . لكني لا أحطم شيئا الآن ولا أطفئ نارا . إنما أترك الجميع حتى يقتنعوا تماماً إن الإله لا يرمز له بتمثال أو يقال إنه نار والنار إن لم تغذها بالوقود تنطفئ .

ثم واصل تراتيل حديثه قائلاً :

– إنني أوصيت الملكة أن تكفل حرية العقيدة وحرية ممارسة الشعائر الدينية . ولسوف يأتي يوم تقفل فيه المعابد الوثنية أبوابها . وتنطفئ النيران المزيفة . ويتضح للجميع أن لا سرمدية فيها .

ثم سكت وأستطرد بعد قليل :

– أريد منكم أن تثقوا أن المجاهرة بالرأي ليست جريمة . فكل واحد يبدي رأيه بلا خوف ، ويعبر عنه بحرية كاملة ، لذلك عجبت من هؤلاء الذين خضعوا لطغيان رئيس الشرطة حينما أمرهم باختيار أشخاص معينة عند تشكيل مجلس الحكماء . لا أريد من واحد منكم أن يخضع للاستبداد ، يجب مقاومته إذا قاومه الجميع فلن يجرؤ أن يقتل كل الناس أو يجلدهم . ولا حتى بعض الناس لو كانوا يمثلون الأغلبية . سوف ينكمش ويتراجع ويرضخ .

انسحب أحد الجالسين ، فقال تراتيل يشير إلى الرجل :

– هذا مثلاً جاسوس لرئيس الشرطة . يظن أنه سوف يؤذيني إذا نقل إليه ما أقول . لا يعرف أن كلمة واحدة مني تحيل رئيس الشرطة إلى داره .

غضب البعض وحاولوا مطاردة الرجل وكان قد فر وهو مضطرب ، لكن تراتيل قال :

- لا .. لا أريد سفك دماء . لا أريد عنفاً سوف نحصل على حقوقنا من خلال السلم .

•••

عاد تراتيل إلى القصر. لا يجوز أن يهجر القصر أبداً . لا بد أن يستمر مرتبطاً به . إنه يستطيع أن يدافع عن حقوق البسطاء من خلال تواجده بالقصر . كان قد عاد يرتدي الملابس النظيفة لكنها غير محلاة بالقصب الذي يلمع فكانت لا تلمع . يبدو كفرد عادي من أفراد الشعب . ووجد الملكة في اجتماع مع كبار القوم . وكرسيه خال ينتظر قدومه . كانت الملكة تجلس في أبهة . تبدو المرأة الأنيقة الوحيدة في الاجتماع . ولم يتجه إلى كرسيه ، ولم تلفت نظره الملكة إلى ذلك . ووزع السلام على الجميع وجلس بالقرب من الملكة بجانب رئيس الشرطة الذي سمعه يقول :

- يبدو أن مولاي تراتيل يحرض الشعب على الحرية .

ابتهج تراتيل وسأله :

- أتقصد أن عصر مولاتك خال من الحرية .

انتفض رئيس الشرطة كأنما أصيب بطعنة خنجر مسموم لم يكن يتوقع أن يبادره تراتيل بهذا الهجوم .وراح يقول :

- لا .. لا أقصد .

سأل تراتيل :

- أتريد أن تعتقلني لأني أعرف الناس بحقوقهم .

ارتبك رئيس الشرطة وأخلد للصمت .

قال تراتيل بصوت هادئ :

- غداً اجتماع مجلس الحكماء يا مولاتي . أريد أن تعرضي عليهم منشوراً ليصدقوا عليه وينفذه المسئولون عن السلطات . . فيه أن لا يتم القبض على أي مواطن أو يحبس أو يتم تقييد حريته بأي قيد . ويجب معاملة المواطنين بما يحفظ كرامتهم . ولا يجوز أن يتعرضوا لأي إيذاء بدني أو حتى معنوي . كما لا يجوز حبسهم أو حجزهم في مراكز الشرطة ما لم يكن يتم التحقيق معهم في جريمة ارتكبوها . وأن تكون السجون نظيفة لا تهدر فيها كرامة الإنسان . ولا يجوز دفع المواطنين لارتكاب أفعال معينة سواء كان ذلك الدفع من جانب السلطة أو من جانب أشخاص من ذوي النفوذ .

هزت الملكة رأسها وهي تقول كأنما تكسب وده :

- إن هذا كلام جميل ومقبول . وسوف أعرضه على مجلس الحكماء ليصدقوا عليه .

أضاف تراتيل بإصرار :

- وأرجو أيضاً أن يكون للمساكن حرمتها فلا يجوز أن يدخلها رجال الشرطة دون إذن مسبق من مولاتي أو من تفوضه من القضاة .. ولا يتم تفتيشها إلا بأمر من القاضي .

عضت الملكة على شفتيها لكنها قالت :

- وهذا أيضاً سوف أعرضه على مجلس الحكماء .

نهض تراتيل وهو يقول :

أستأذنكم فإنني متعب .

ولم يكن لأحد أن ينصرف قبل أن تأذن الملكة بفض الاجتماع .

هذا الرجل لا تستطيع مقاومته . ماذا فيه حتى يُلجم لسانها ، ويوقف تحركها ، ويقودها إلى تصرفات تأباها ، ويوجهها في طريق ترفضه . كانت متعطشة لممارسة السلطة وهو يمنع وصول الكوب إليها .هل هذا هو الحب ؟ ..هل هو الخوف ؟ .. وكيف أخافه وأنا ملكة الأرخبيل .

سألته الملكة في مخدعه المستقل ، وقد صمم على اعتزالها حتى تعود إلى جادة الصواب :

– ماذا بشأن جزيرة البركان ؟ ..

قال تراتيل مبتسماً:

– الخطة تسير على خير ما يرام .لقد اصبح عدد المنتمين إلينا يفوق عدد المنتمين إلى حكام الجزيرة . إننا في كل يوم نرسل رجالاً أشداء . يعملون هناك . ويتزوجون من نسائهم سيكون عدد الأولاد في المستقبل من أبنائنا يفوق عدد الأولاد من أبنائهم . أليست هذه خطة سليمة للقضاء عليهم . يوماً ما سوف تعود الجزيرة إلى مملكة الأرخبيل .

سألت بخبث :

– وإذا رغب هؤلاء الذين ينتمون إلينا أن يستقلوا عن مملكة الأرخبيل ؟ ..

قال تراتيل ساخراً :

– أشك في ذلك .. إن الأيمان بالمبادئ والأهداف لا يجعل الرجال يتحولون . كل الناس هناك بدأوا في الاقتناع بأن الوحدة مع مملكة الأرخبيل هي خير لهم من الانفصال عنها .

•••

ركب تراتيل قاربه ليعود إلى جزيرة البركان ليتفقد الأحوال هناك . يقيس مدى تحقيق الأهداف التي رسمها . وما إذا كان الرجال مستمرين في تحقيقها أم أنهم حادوا عنها بأن شغلتهم الدنيا برونقها . استقبله أهل الجزيرة والمنتمين إليه بالترحاب . وقرر البقاء فترة حتى تهدأ نفسه وتجعله ينظر إلى الملكة نظرة حانية . كان غاضباً منها لأنها حادت عن الحق . اعتقلت . وتركت المفسدين يعيثون في الأرض فساداً وتحركت كالطاووس لا تقاوم غرورها بل تنساق وراءه . يبدو أن حب الملذات والزعامة والسيطرة ركبها وصار يقود تحركاتها بلا عقل أو روية أو نظرة صائبة .

زار تراتيل الجنود المنتمين إليه في بيوتهم . وأجتمع بهم سراً دون نسائهم . قال لهم : إن النساء يخن الرجال ، لذلك يجب أن يكون مخططنا سرياً حتى نطمئن تماماً إلى النساء . وعرف من البعض أن نساءهم قد حملن . قال : إن الأمر سيطول . وعودوا أنفسكم أن هذا الموقع الجديد هو وطنكم . أريد من النابهين منكم أن يشاركوا في مسئولية السلطة ويقتربوا من الحكام حتى يتخذوهم معاونين لهم وإذا ما شعروا أن الحكم أصبح في أيديهم يعلنون الانضمام إلى مملكة الأرخبيل . إننا نريد أن نطوقهم من كل جانب . نتغلغل في كل ناحية . وكل عمل . وكل نشاط . نريد أن نذوب فيهم ويذوبوا فينا بشرط أن نظل نحتفظ بشخصيتنا . ونذكر هدفنا المؤكد وهو أن تعود جزيرة البركان إلى مملكة الأرخبيل .

***

بينما كان تراتيل يصلي بأفراد قرية في جزيرة البركان ، جاء رجل من المشايعين له ، وهمس في أذنه :

– جاءت الملكة للمرة الثانية .. تعقد اتفاقاً مع كاهن جزيرة البركان .

– كيف عرفت ؟ ..

– إنني أعمل في قصر الكاهن .

– إذاً خذني إليها لأتكلم معها .

– لكن ذلك خطر عليك يا سيدي .

– لا خطر أبداً . سوف نذهب عند الفجر . تكون الحراسة قد خفت . ونتسلل إليها . أتعرف مقرها .

– نعم .. يا سيدي .

وفي غبشة الفجر ، أتجه تراتيل إلى قصر الكاهن ، وكان الرجل المرشد في انتظاره . وقاده عبر بستان كبير إلى مقر الملكة . لم تكن نائمة . كانت تفكر . وتخشى في نفس الوقت أن ينكث كاهن الجزيرة بعهده ويغتالها .

واستطاع تراتيل أن يستغفل الحراس ، وأخذ يمضي إلى حجرة الملكة متلفتاً ذات اليمين وذات الشمال .

كادت تصرخ لولا أن وضع يده على فمها فأسكتها . رأته وجهاً لوجه ، قبلت يده التي تراخت بعدما كتمت صرختها .

- أجننت . كيف تأتي إلى هنا . إنهم لا يعرفونك . قد يقتلونك .

- لا تخافي . أريد فقط أن أعرف أسباب خطوتك الجديدة .

- لقد فكرت ملياً في الأمر . ولما وجدت أن مخططك سليم للغاية . وأن الجزيرة يملؤها رجالنا . وجدت أن أعقد صلحا مع الكاهن الجديد . وأنشط العلاقات بين الجزيرة والمملكة . واسمح لأهلها بالانتقال إلى أنحاء المملكة .. تجارة سياحة أعمال ..فبينما تملأ الجزيرة رجالنا ، تفرغ من رجالهم .

- مخطط أرجو أن يتحقق . والآن أتركك .

نظرت إليه بغرام وقالت :

- إلى متى سوف أفتقدك ؟

- سأكون في جزيرة الحكم يوم وصولك .

- أنا لن ألبث هنا كثيراً . وعاد من جديد يتسلل . ولم يكن ينتظره الرجل الذي أرشده إلى حجرة الملكة . كانت الحديقة ساكنة ، والهواء هادئ ، والأزهار تفوح رائحتها الزكية . وطفق ينقل خطواته بخفة . وما كاد يرتفع ليقفز السور حتى تحرش به حارسان امسكاه . حاول أن يقاومهما . غير أن آخرين انضموا إليهما وأمسكوا به . وجروه إلى رئيس الحرس .. في حجرة عند أطراف القصر .

أمتثل أمام رئيس الحرس وهو مقيد . سأله رئيس الحرس : ماذا كنت تفعل يا هذا ؟ ..

قال تراتيل : كنت أريد أن أقابل الملكة .

قال رئيس الحرس : وما شأنك بها ؟

-كنت أريد أن أحدثها في خطواتها التي تتخذها .
- ما أسمك ؟
- تراتيل .
وفجأة أمر رئيس الحرس بخروج الحرس من الحجرة . وما كادت تفرغ من الرجال حتى قال : الأرخبيل .. الأرخبيل .
قال تراتيل : إذاً أنت منا ؟
قال رئيس الحرس : التقيت بك منذ شهور حينما نزلت الجزيرة ، لكن نسيت وجهك ، حتى لفظت بكلمة تراتيل عرفتك فالاسم نادر في الجزيرة بل في المملكة .. أنا واحد منكم يا مولاي .
قام رئيس الحرس بفك قيوده . واحتضنه تراتيل بقوة ورئيس الحرس يقول : لقد عرضت نفسك للخطر .
جلس تراتيل وهو يقول : لم أكن أظن أنكم سوف تتغلغلون في شئون الجزيرة إلى هذه الدرجة !
قال رئيس الحرس : هناك من يقف بجانب الكاهن يعطيه النصح فيما يفعل .
أندهش تراتيل وهو يقول : ألهذه الدرجة ؟ ..
ثم سأله : ألا تخاف أن يكشف أمرك ؟ ..
- ومن يعرفني هنا . إنني أتكلم بلكنتهم .. وأفعل ما يفعلون حتى يحين وقت الخلاص . ونقتنص الجزيرة اقتناصاً . إننا على صلة بأنفسنا جميعاً . ونعرف تحركات كل منا وموقعه ، وذلك بفضل القائد الذي عينته من بعدك .
-الحقيقة لم أتصل به حتى الآن . لكن كيف سوف تطلق سراحي ماذا ستقول تبريراً لهذا الإطلاق ؟ ..
- سأقول إن على الحرس أن يصرفك لأنه لم يقع منك أي ضرر . وسأطلق سراحك في الحال . ولا أريد أن تعود إلى هذه المخاطرة بعد ذلك . إننا نريدك معنا .

***

رحل تراتيل بعد أن قابل الضابط المكلف بتنفيذ المخطط وعرف منه ما وصل إليه من أهداف . واستقبلته ولية العهد في الميناء لتسمع منه الأنباء . وذهلت من جرأته . وتعجبت من ثبات جأشه .وجاش أختها في مملكة اللئام . وطال بينهما الحديث حول ما فعله في جزيرة البركان غير أنه لم يذع شيئاً مما يخططه هو والملكة .إنما أوحى إليها أنه يجند هناك رجالاً لقلب نظام الحكم في الجزيرة من أهل الجزيرة حتى تعود إلى مملكة الأرخبيل .

سألته : ألا تخاف ؟

- لا .

- وما السبب ؟

- ذلك لأني مؤمن بقضية . والقضية تسيطر على كل حواسي ، لذلك لا مكان للخوف في قلبي .

- هكذا أمثالك من الرجال . كنت أبحث عن سر هؤلاء الرجال الذين لا يهابون الموت . ويخوضون غمار المؤامرات . عرفت للتو واللحظة السبب . ألا وهو الإيمان بقضية . إنها تنسيهم التفكير في الخوف .

- ألا تعرفين ؟ .. إنني في بعض الأحيان أصل إلى حقائق كنت أجهلها من خلال مناقشاتي مع الناس . اليوم فقط عرفت السبب في اختفاء الخوف من حياتي .

واستطردا في أحاديث أخري . ومضى الوقت دون أن يشعرا. تمنت ولية العهد في لحظة أن يكون ذلك الرجل الجريء هو بعلها . ولما ناقشت نفسها وهى تخلد إلى النوم : أمعقول أن تموت الملكة وأتزوج من تراتيل . تموت وتتزوج الأخت الثالثة منه . إنها قصة لو حدثت لتغنت بها الأجيال . ولسموه زوج الأخوات .

الفصل السادس عشر
بركة من دماء

قالت الملكة بشموخ :

- إن مملكة الأرخبيل قررت ألا تكون بينها وبين الجزيرة - جزيرة البركان

- أي حرب جديدة بعد الآن ؟

قال الكاهن وهو يجلس على كرسي العرش بثقة :

آمل ذلك . ومن جهتي فإنني أتعهد بذلك .

قالت الملكة ساخرة :

- لكن سلفك نكث بعهده . وعدتم من جديد تستولون على جزيرتي الصخر والنسمة .

- سوف نعقد اتفاقاً الآن ليسود السلام بيننا إلى الأبد .

قالت الملكة : ألا تعلم أن جزيرة البركان كانت ضمن مملكة الأرخبيل في السنين السالفة .

قال الكاهن ، وهو يحاول أن يبدو ثابتاً :

- ذلك زمان انقضى وأذكرك أن مملكة الأرخبيل كانت أجزاء مختلفة قبل أن يوحدها أبوك الملك السابق . أين هو الآن ؟ ..

قالت الملكة : إنه يعيش معززاً مكرماً في قصره ، لقد أقصته أختي عن العرش . لكن وهي تحتضر عاد من جديد إلى جزيرة الحكم . وبقى هناك .

سأل الكاهن ساخراً :

- ولم لم يعد إلى العرش ؟

- إنه لا يقبل أن يعود إلى العرش . تركه لي .

قال الكاهن ، وهو ينظر إلى أظافره :

- هكذا .. نحن . لا نقبل أن تعود الجزيرة إلى مملكة الأرخبيل .

•••

دخلت إلى السفينة تتبعها الحاشية ، بجانبها رئيس الشرطة ورئيس الزراعة وقائد الجيوش بالنيابة . وأشارت بالوداع إلى الكاهن وهو في وادعها عند ميناء الجزيرة . ولم يكن هناك أحد محتشد إلا كبار رجال الجزيرة . يقفون كأنهم يودعون زائرا وليس ملكة كانت أختها تحكمهم في يوم من الأيام .

أدارت ظهرها للحشد الصغير ، ودخلت قمرتها ومعها كبار رجالها . وراحت تقول :

- أريدك ..

وأشارت إلى رئيس الزراعة في المملكة :

- أريدك أن تستجلب أفراداً كثيرين من جزيرة البركان ، ليزرعوا الأرض في مملكة الأرخبيل .

- كيف ذلك يا مولاتي ؟

- أكثر من زيارتك إلى الجزيرة وأكثر من إغراء الفلاحين بالهجرة إلى جزيرة البركان . أريد أن يهاجر المئات عاماً بعد آخر .وأريد للمئات من جزرنا أن يحلو بدلاً منهم . إن عملية تفريغ الجزيرة من شعبها يجب أن تأتي بصورة غير محسوسة ومنظمة وتدريجية وسرية أيضاً .

قال قائد الجيوش :

- وهكذا ينزح ناسنا وهم ينزحون ...

نظرت الملكة نظرة حادة إليه فتوقف عن الكلام . لقد أخطأت الملكة إذ قالت جزءاً من الخطة السرية أمام رئيس الزراعة وأرادت ألا تتمادى في إفشاء الأسرار فلا يعلمها سواه وتراتيل وقائد الجيوش بالنيابة والجنود النازحون المقيمون في جزيرة البركان .، وهم متغلغلون فيها الآن ما بين مزارع وصياد وعامل وجندي في قصر الكاهن الكبير . حاول رئيس الزراعة أن يستزيده لكن قائد الجيوش بالنيابة أنصرف قائلاً :

- استسمحك يا مولاتي .. سأتفقد تحرك السفينة نحو جزيرة الحكم .

وخرج مرتبكاً كأنما أقترف أثما مع أن الملكة هي التي ارتكبته .

•••

للمرة الثانية تشاهد الملكة مظاهرات ضدها في عاصمة الملك . خرج الشباب يهتف ضدها . ضد من سولت لها نفسها أن تصافح الأعداء . وسمعت بأذنيها : يسقط ملكة الأرخبيل المتحالفة مع الأباطيل . تسقط مملكة الظلم المقيم وجزيرة الظلام الرجيم . عودي إلى عبدة النار قبل أن يطلع النهار .

استطاعت الشرطة أن تفرق المتظاهرين بالعصي . وتفرق البعض منهم ليتجمعوا من جديد .ويسيرون في دروب الجزيرة يهتفون .

غضبت الملكة وقادتها الحافلة إلى القصر . كانت الجياد تنهب الأرض نهباً حتى تفلت من الشباب الثائر . ودخلت إلى القصر والتوتر قد أصابها في كل فرائصها . ووجدت تراتيل في انتظارها مندهشا لما رآها متوترة . كان وولية العهد جالسين يتكلمان . ونهض مفزوعاً وهي تجري على الرخام اللامع متجهة إلى كرسي العرش . جلست وأنفاسها مضطربة يتزاحم الشهيق مع الزفير . كل منهما يريد أن يدخل أو يخرج قبل الآخر . وهتفت :

– هل رأيت يا تراتيل . أريد أن أسترد جزيرة البركان بالحيلة ، فيخرج الناس ليهتفوا ضدي .

– كيف حدث ذلك ؟

– هذا ما حدث .

دخل الحاجب يعلن مولاته أن وفداً من كبار رجال الجزيرة يريدون مقابلتها على الفور . رفضت صارخة أنها لا تستقبل أحداً ، غير أن تراتيل قال بثقة :

– دعهم يدخلون .

استشاطت الملكة غضباً من تراتيل ، غير أنها تمسكت بالصمت وزفرات من الغضب تتراقص على أنفها ، ثم استكانت .

استقبلت القادمين مرفوعة الرأس ، وتقدم كبيرهم يقول :

- نحن نمثل كبار تجار وصناع وفلاحي جزيـرة الحكم جئنـا نقـول لـك إن الخطوة التي اتخذتها في الاتصال بجزيرة البركان وهى جزيرة معادية للمملكة أمر لم يكن جائزاً أن يحدث .

سألت الملكة :

- من الذي يجيز ومن الذي لا يجيز . أنا التي أقرر في هذه المملكة ...

قاطعها تراتيل وقال :

- مولاتي ..دعي الرجل يكمل حديثه .؟

تراجعت متهورة . هذا الرجل أحبه بالفعل ، ولكن تدخله في حكمي يجعلنـي أكرهـه . أيريـد أن يلغـي شـخصيتي ؟ ألا يحسـب حســاب هيبتهـا أمـا هـؤلاء الغوغاء .

قال الرجل ممثل كبار الجزيرة :

- كنا نود أن لا يكون هناك تعاملاً بين المملكة وهذه الجزيرة المنفصلة .

قال تراتيل متدخلاً :

- الملكـة حينمـا اتخـذت قرارهـا كـانت تنـوي هدفـاً لصـالح المملكـة ، لا تعرفونه ، ولا يمكن إذاعته ، لأنه إذا عرف فقد يهدم كل ما نبنيه . وهو مرتبط بهدف آخر كنت أقوم بتحقيقه سراً . وكلا الهدفين يحققـان فـي المـدى المتوسـط إعادة جزيرة البركان إلى المملكة ، فهل تقبلون أن يذاع السران ويفشـل الهدفـان ولا يبلغان المراد .

قال الرجل : لا .. لا .. إذا كان الأمر كذلك فنحن ننسحب ونعتذر .

ابتسمت الملكة وقالت :

- فـي بعـض الأحيـان يتخـذ الحكـم سياسـة معينـة أو قـراراً معينـاً يغضـب الشعب ، ولكن بعد مدة يدرك الشعب أن السياسة أو القرار كانت صائبة .

•••

سافر رئيس الزراعة إلى جزيرة البركان بغية توثيق العلاقات بين الجزيرة ومملكة الأرخبيل . استقبله الكاهن بفتور ، لكن لم يتماد في فتوره . إذ همس رئيس الزراعة له قائلاً :

- أريد أن أقول لك كلمة على انفراد .

ارتاب الكاهن في الأمر ، لكنه أمر حاشيته وكبار رجال الجزيرة بالانصراف . وحينما أختلي الكاهن برئيس الزراعة همس قائلاً :

كأنه لا يزال يرتاب في أن أحداً يسمعه :

أتعرف يا أيها الكاهن أن أصولي نزحت إلى جزيرة الحكم من جزيرة البركان .

قال الكاهن بفضول :

- من يعرف غيرك ذلك ؟

قال ضاحكاً : لا أحد .

سخر الكاهن وهو يقول : هذا ما كنت تريد أن تقول على انفراد .

أسرع رئيس الزراعة قائلاً : لا .. لا .. هناك أمر خطير أريدك أن تعلمه . سأله وقد رفع حاجبيه : أمر خطير .

قال رئيس الزراعة وهو لا يزال يهمس :

- شعرت أن هناك مخططاً ضد جزيرة البركان .

فغر الكاهن فاه وسأل : مخطط ؟ ...

- نعم .. نعم .. فهمت من حديث الملكة إلى قائد الجيوش بالنيابة أن النية تتجه إلى ملء الجزيرة بسكان آخرين وتفريغها من سكانها الأصليين .

أمسك بكتفه وقال : ما هذا ؟ .. هل جننت ؟ ..

قال : هذا ما فهمته . إنني الآن في مهمة أن أتعاقد معك على نزوح بعض العاملين في الزراعة وهم أكثرية من أهل الجزيرة من جزيرة البركان إلى جزر المملكة . وأعتقد أنك لن تقبل .

هز رأسه وقال : نعم .. نعم .. ..

وتحسس كرشه الأسمر العاري .. كان هكذا هو لباس الكهنوت يقتضي أن يعري كرشه وكتفيه وجزءاً من قدميه . ويتدلى من رأسه عقد ملئ بالجماجم الصغيرة لقط وكلب وأسد ونمر مصنوعة جميعها من سن الفيل ذلك الفيل المنتشر في الجزيرة طليقاً ويقومون باصطياده . سأل الكاهن :

– وماذا تقترح ؟

– أقترح أن تسمح ببعض الخبراء في الزراعة فقط ، وترفض نزوح الفلاحين لحاجة الأرض إليهم . وأقول لها إنني سأحاول أن أقنعك في الزيارة القادمة .

– فكرة ..

وأقترح أن تبدأ من الآن في الكشف عن هؤلاء الأرخبيليون الذين جاءوا سراً لاستيطان الجزيرة .

أندهش الكاهن وهو يقول :

– أمعقول أن هناك أرخبيليون في الجزيرة دون أن نعلم .

– من المؤكد ذلك .

•••

أمرت الملكة رئيس الشرطة أن يقبض على كل الرجال الذين جاءوا لمناقشتها . تريد أن تقوم بتفريغ الجزر – خاصة جزيرة الحكم – من الذين يعارضونها . لم ترض بصرفهم بسلام كما أشار تراتيل إليها . وفضلت أن يناموا جميعاً في معتقل . وذلك دون أن يدري تراتيل بشيء . وهمس لها رئيس الشرطة أن نظيره السابق في ظل الملكة السابقة كان لا يكتفي بالاعتقال ، إنما يلجأ إلى التعذيب . وزين لها لذة التعذيب ، وما سيؤدي التعذيب إليه من هزيمة نفوسهم ، وحينما يعودون إلى ديارهم ، سوف يصابون بالخوف ويرغبون عن المعارضة . وصدقت الملكة على أمر الاعتقال .

حينما علم تراتيل بذلك سألها :
- كيف تفعلين ذلك ؟ ..
قالت محتدة :
- أعلمهم أن لا يعارضوا بعد ذلك .
- ولكن الناس لم يفعلوا خطيئة . إنهم لم يكونوا يعرفون السياسة العليا للبلاد .
- ولكن بعد الاعتقال سوف يعرفون .
- هل هذا منطق ؟ ..
ثم سكت وعاد يقول :
- أريد أن تفكي أسر هؤلاء الرجال فوراً .
هزت قدمها معترضة ودقت بكعب حذائها الأرض غضباً . وقالت :
لا .. وألف لا .
قال تراتيل :
- إنني لن أبقى في المملكة إلا إذا أطلقت سراحهم .
- أفعل ما تشاء . غادر تراتيل المملكة ، متجها إلى جزيرة البركان ، لا يعرف متى سيعود ، وليشرف على عمليات نزوح أبناء المملكة إلى الجزيرة ، ذلك النزوح المستمر الذي لا يتوقف ولا يهدأ تياره .

•••

قالت المرأة لولدها الضابط في قصر الملكة :
- ألا تعرف يا بني أين أبوك ؟
- ماذا حدث له ؟
- لقد كان ضمن الوفد الذي ذهب إلى الملكة ليعارضها بسبب زيارتها لجزيرة البركان . وبعد أيام من انصرافهم من لدى الملكة أختفي .
- أين ذهب ؟

- قيل لي إنه تم القبض عليه وهو في محله بالسوق . فاجأه العسكر وقبضوا عليه .

- ماذا جنى ؟

أغتاظ الضابط الشاب . وذهب إلى القصر يتلمس الأخبار . وتنصت على حديث دار بين رئيس الشرطة وقائد الجيوش . قال قائد الجيوش :

- أختفي تراتيل مرة أخرى .. ألا تعرف أين ذهب ؟ .. أين يمكن أن نجده ؟ ..

قال رئيس الشرطة وهو يحب الكلام :

- أعتقد أنه غضب من الملكة .

- ولم غضب ؟

- كان ضد حركتها الأخيرة .

- وما هي هذه الحركة ؟ ..

- ألا تعلم ؟

- لا .. بطبيعة الحال .

- لقد غضبت على الوفد الذي جاء يعارضها . وهم الآن رهن الاعتقال . ويتم تعذيبهم يومياً حتى لا يفكروا في المعارضة حينما يخرجون .

- تعذيبهم .. وماذا فعلوا ؟ ..

-إذا ما أفرج عنهم ، يعودون إلى أعمالهم ولا يجرؤون على معارضتها مرة أخري .

- ولكنهم لم يكونوا يعارضون . كانوا مستاءين فقط من زيارتها لجزيرة البركان ، ووضع حد للحرب بأسرها بين الجزيرة والممنكة .

- المهم أن تراتيل قرر أن يترك المملكة بأسرها .

- وأين ذهب ؟

- فليذهب إلى الشيطان .

يتم تعذيبهم .. يتم تعذيبهم . هكذا صار الضابط يحدث نفسه . أبي الآن معتقل . يتعذب . يشوى بالسياط . لسوف أنتقم .. لسوف أذيقها مرارة الموت ، مثلما تذيق أبي علقم الحياة .

أقترب الضابط من مخدع الملكة متسللاً ، فاجأته بخروجها من المخدع ، صاحت فيه :

- ماذا تفعل هنا ؟ ..

قال الضابط وهو يقف وقفة عسكرية :

- أبداً .. أبداً ..

كانت الملكة ترتدي ثوباً شفافاً ، تغطيه غلالة من حرير . تبدو مفاتنها واضحة .ساحرة تخلب اللب ، لكنه سحب سيفه من غمده ، وطعنها في صدرها اللدن ، فغطت الدماء الغلالة . وسقطت الملكة على الأرض تصارع الموت . وقال لها : هذا جزاء من يخرج على الحوار .

سحب السيف من صدرها ، وطعنها مرة أخري في قلبها وهو يقول :

- أراك في الجحيم .

كان المعتقد في المملكة أن الشمس وهى الجحيم ستكون مأوي الأرواح الشريرة .. والقمر وهو الفردوس سوف يكون مأوى الأرواح الخيرة . ولم يحاول تراتيل أن يناقش هذا المعتقد . لم يكن قد فكر بعد في الحياة الأخرى .

صرخت المرأة صرخات متتالية ، فتجمع الحرس من كل جانب . وقبضوا على الضابط الشاب متلبساً بما فعل .

وصل الطبيب متأخراً . حيث كانت الملكة تعوم في بركة من الدماء .

الفصل السابع عشر
النقطة السوداء

تولت ولية العهد الملك .

صدقت على صك إعدام الضابط قاتل الملكة السابقة . أطلقت سراح المعتقلين وهى تقول لرئيس الشرطة :

- أنا لا أريد أن أبدأ عهدي بهذه النقطة السوداء .

قال قائد الجيوش :

- سمعت أن مولاي تراتيل كان معترضاً على تلك الاعتقالات .

حملقت الملكة في وجهه كأنما تذكرت شيئاً وسألت :

- وأين مولاك تراتيل الآن ؟

قال قائد الجيوش :

- إنه غادر المملكة .

وهمس في أذنها حتى لا يسمع أحد :

- إنه في جزيرة البركان يشرف على تنفيذ المخطط .

قالت الملكة هامسة أيضاً :

- أي مخطط ؟

- سأقول لك فيما بعد .

- وهل تعرف كيف تتصل به ؟

- نعم يا مولاتي .

- إذا بلغه أن يعود إلى جزيرة الحكم فوراً .

كانت خطة تهجير أعداد كبيرة إلى جزيرة البركان مستمرة . وكانت الصلة بين قائد الجيوش بالنيابة وتراتيل لا تنقطع . رغم أنه كان مشغولاً بتدريب الأفراد داخل الجزيرة للاستيلاء على الحكم والجيش والناس .

جاء أحد الجنود النازحين إلى الجزيرة خلسة وقال له في حزن :

- الملكة قتلت .
بهت تراتيل . وسأله المزيد فروى له قصة الضابط الشاب الذي أنفجر غضباً بسبب اعتقال أبيه وآخرين فقرر أن يقتل الملكة لتذهب أعمالها هباء .
ثم أردف الجندي :
- مولاتي الجديدة تريد منك العودة على وجه السرعة .
ركب تراتيل قاربه ، وأخذ يجدف مهموماً . قضى عليها استبدادها . بدأت بداية جيدة وانتهت نهاية سيئة . لو كانت قد نفذت مشورتي ما انتهت حياتها .
وحينما وصل إلى القصر لم تصافحه الملكة ، بل عانقته وبكت على صدره .
وقال وهو يحاول أن يزيحها :
- لا تبكي .. أنت الملكة . والملكات لا يبكين .
- أريدك معي في الحكم .
- أنا رهن إشارتك .
- إذاً فلنتزوج .
- ماذا سيقول الناس . أيقولون إنه يقتنص الفرصة ليبقى على العرش إلى الأبد .
- هذا قدرك . لنبق شهراً أو شهرين ، وبعد ذلك نتزوج .
- ذلك أفضل .
قال تراتيل : سمعت أنك أطلقت سراح المعتقلين . خيراً ما فعلت .
قالت الملكة : لم يقترفوا أي ذنب يستأهل أن يعتقلوا من أجله . أما القاتل فقد تم إعدامه جزاء على ما أقترف .
قال تراتيل : نعم الحكمة .. نعم الصواب .

***

وصلت الأنباء إلى تراتيل أن جنوده يغتالون غيلة . كلما كشف جنود الجزيرة أحد المتسللين من جنود المملكة ، هموا بقتله على الفور دون تحقيق .

قال للملكة : لا بد أن أغادر لأبدأ في تغيير الخطة .
قال : أتتركني في ليالي عرسي الأولى .
- إن واجب الوطن علينا أن نلبي النداء على الفور .
تركها وحدها تتمنى قربه . فقد رفضت أختها الكبرى الملكة الأولى أن تزوجها أحدا لأنها لم تجد أحداً جديراً بها ، مع أنها تزوجت صياداً جعلته حكيم المملكة . ورفضت أختها الوسطى أن يُعقد قرانها على أحد ، لأنها ساقت نفس المبررات .ومع ذلك تزوجت زوج أختها الكبرى . وها هي قد تزوجت الرجل من جديد كأن هناك شرطاً أن لا تباشر سلطاتها إلا إذا كانت الملكة تتزوج ذلك الرجل الفذ .وما كادت تذوق منه أسعد أيام حياتها حتى غادر الجزيرة . يريد أن يحارب المغتصبين لجزء من المملكة . هي ترفض ولكنه لا يتوانى عن تحقيق هدفه . ماذا تفعل ؟ .. أتفعل مثل أختها الكبرى حينما لم تكن زوجاً لأحد ؟ .. وهل هذا يليق بملكة ؟ ..

•••

اجتمع تراتيل بقائد الجيوش بالنيابة وطلب منه أن يوافيه بالأسلحة والذخائر لمعركة قادمة . عليه أن يرسل السفن المحملة بالسلاح إلى الجهة الجنوبية من الجزيرة . وهى منطقة قاحلة يتوسطها البركان الخامد . وتحيطها أرض خصبة وجداول مياه عذبة لكن أحداً لا يسكنها ولا يزرعها لأنه يخشى من ثورة البركان في زمن من الأزمان القادمة . لذلك تبدو المنطقة مهجورة ولا زرع فيها .
سأل قائد الجيوش بالنيابة :
- أتريد أن تحارب جزيرة بأسرها بحفنة من الجنود ؟
قال تراتيل : أنا لن أحاربهم حرباً فيها تنظيم ، إنما سوف أغتال كبراءهم واحداً بعد الآخر . والواقفين أيضاً بجانبهم . سوف أنعزل في الأجزاء الجنوبية وأتحصن .. وأرسل الفوج بعد الفوج للقيام بعمليات انتحارية ، وعليك أن تمدني

بالسلاح والعتاد بصفة دورية دون أن أطلب منك . وحينما أقول لك أبدأ الهجوم عليك بالطاعة لأنك سوف تدخل ولن تجد أي مقاومة .

– سمعاً وطاعة يا مولاي .

لم يستطع أن يقول غير يا مولاي ، فقد اختارته الملكة الجديدة زوجاً لها . ومن هو زوج الملكة فهو مولاه .

•••

جدف القارب في المساء إلى الجهة الجنوبية من جزيرة البركان ، تعود أن تقوده النجوم في هذا الليل البهيم . يحتاج إلى يومين حتى يصل إلى الجزيرة ، لذلك يأخذ معه الزاد اللازم . لا يمكن أن يصل بسفينة ملكية حتى لا يكشف أمره .

هناك ربط القارب بهلب قوي غرزه في الأرض ، وغطاه بحجر وشد القارب إلى الطين الجامد وكفاه على وجهه كأنه مقلوب من أثر الموج وعوامل الزمن . وأبعده عن العواصف والرياح حتى لا تحركه من مكانه ويفقده فقد تدفعه إلى البحر ويضيع فيه فإذا أراد العودة لا يجده .

لم يكن هناك أحد في البقعة التي نزل بها . إنها تقع بالضبط خلف البركان . وهذه المنطقة يتشاءم أهل الجزيرة من الدخول فيها أو الاقتراب من شاطئها . يعتقدون أن البركان يسيطر عليها وقد يغضب إذا ما داسها إنسان . ومن ثم يظنون أنه إذا داسها أحد فقد يثور البركان ويكتسح ما هو قريب منه إن لم يكتسح ما هو بعيد عنه .

وكان الليل ساكناً ، وهو يعرف أن بعض جنوده يعسكرون في هذه المنطقة استعداداً للتدريب ومن الحرب . وتعدى منطقة البركان . وبغتة برز له جندي مسلح يقول له : قف من أنت ؟ قال تراتيل : أنا تراتيل يا أيها الجندي . كانت لكنته غير لكنة أهل الجزيرة فعرف أنه من جنوده . وقال : كلمة السر ؟ ..

قال : الأرخبيل .. الأرخبيل . وتقدم الجندي منه ليتأكد من وجهه المعروف لهم جميعاً ، فهو أول من يقابلونه عادة في الجزيرة . وحياه الجندي فسأله : أين قائدك ؟

قال : على مقربة فرسخ من هنا ؟ ..

وتعرض تراتيل إلى معارضات الجنود كلما توغل في جنوب الجزيرة ، حتى وصل إلى قائد المنطقة . وأجتمع به وقال له :

- أتصل بكل الجنود ليبدأوا العمل المنوط بهم فعله وهو اغتيال الشخصيات الكبيرة في الجزيرة .وليعود الذين لا صلة لهم بهذه الشخصيات في جنوب الجزيرة . لذلك من هم في أماكن حساسة كقصر الكاهن أو الجيش أو في الأمن أتركهم كما هم .سوف نبدأ الحرب من الآن . ونزحف ونستولي على الجزيرة .

نهض القائد يحتضنه فخوراً به .

•••

بدأت المعركة بين كر وفر . رجال تراتيل يتقدمون . وجيش الجزيرة يتقهقر . وينقلب الوضع فيحاصر رجال تراتيل . وجيش الجزيرة يتقدم . لم تكن خرافات أهل الجزيرة تروق لجنود مملكة الأرخبيل ، لذلك تقهقروا إلى داخل الجنوب . واقتربوا من البركان . ولم ينزعجوا لاقترابهم منه . غير أن جنود الجزيرة خافوا غضبة البركان فثبتوا في أماكنهم .

بيد أن بعض الجند تجرأوا وتقدموا في اتجاه تراتيل . عرفوا أنه القائد فلم يهتموا بموقعهم من البركان . ولما وجد تراتيل أن الخطر يحدق به ، صعد إلى قمة البركان . ولم يأبه الجنود لذلك ، فاستمروا في مطاردته حتى النهاية .

عند فوهة البركان صعد تراتيل ، والجنود في أثره . إذا قرر أن يقاتلهم جميعا فسوف يقضي على نفسه ، وسيكون مهزوما لا محالة . وأفلتت قدمه وهو يتقهقر ناظراً إليهم . سقط في فوهة البركان الخامد . لم يشعر إلا أنه سقط من ارتفاع غير شاهق وكانت الأرض طينية إسفنجية . لم يرتطم بحجر ولم

يشعر بألم . ونظر إلى أعلا فوجد أن فوهة البركان بعيدة . وعرف أن لا محالة مقض عليه ، لكن فكر في اختراق البركان من ناحية البحر ، فقرر أن يبدأ في حفر نفق إلى البحر وبدأ العمل حتى يكل ، ربما ينفذ من هذا البركان إلى المياه المالحة . طفق يشق الأرض بخنجر ويزيح الطين اللين ، ثم صادف طيناً صلداً . تأكد أن الأمطار قد سقطت منذ أيام داخل البركان ، لذلك بللت الطين الصلد وحولته إلى طين كالإسفنج . أما هذا الطين الجديد فهو يحتاج إلى الحفر بعنف . وطفق يدق و يدق ويدق . حتى تفتت جزء منه . وبدأ يحفر من جديد بخنجره . ولم يرفع رأسه ويرى الجنود ينظرون إلى مكان اختفائه . وحينما عجزوا عن اكتشاف مكانه انصرفوا وهم يهللون . قتلنا قائدهم . وصل الخبر إلى قائد جنود مملكة الأرخبيل من خلال جواسيسه داخل الجزيرة ، فأحتار ماذا يفعل ؟ .. هل يستمر في المقاومة أم ينسحب عائداً إلى بلاده . ورأى أن يستطلع رأى الملكة في ذلك . وغاب الجندي أربعة أيام وعاد يقول : لقد قابلت الملكة الجديدة وقد أمرتني أن أقول لك تراجع أنت وجنودك .

انسحب الجيش بهدوء دون ضجة .. في القوارب المرصوصة بشكل عشوائي في النواحي الجنوبية من الجزيرة . مما كان يوحي أنها قوارب صيد قد أصيبت بالعطب . وأن أحداً لا يستعملها ولا يفكر في إصلاحها .

بينما لا يزال تراتيل يدق في الصخر . هرب النوم من عينيه ولم يفكر في طعام أو شراب . وشعر أن قواه على وشك أن تنتهك لكنه طفق يواصل الحفر بعمق ناحية البحر .

بغتة أنبثق من الفتحة التي يحفر فيها دخان كثيف حمله بقوة ، وأفلت من فوهة البركان ، وسقط في البحر .

بدأت الحمم تنبثق هي الأخرى وتملأ البركان الخامد وتحول فجأة إلى بركان ثائر . وتسربت الحمم من فوهة البركان ، وأخذت تغطي المنطقة الجنوبية من الجزيرة .لم تكتف الحمم بذلك ، إنما بدأت تزحف إلى المناطق الأخرى

والبركان يواصل نشاطه ولا يتوقف . وأستمر البركان في غليانه ولم يهدأ ، وأصيب سكان الجزيرة بالذعر .

دخل الكاهن إلى معبد النار يطالب النار المقدسة أن يهدأ البركان . لكن النار لم تسعفه في شئ .كانت ساعة النهاية قد دنت حينما حاصرته الحمم المستعرة من كل جانب . والتهمت النار المقدسة وغطتها باللهب الساخن واالحديد والنحاس المنصهر و المتقدة .

صرخت النساء . وزعق الرجال . وحاول البعض أن يفلت من الحمم إلى الماء ، غير أن الحمم صارت تعوم على وجه الماء . وغرق في البحر من لا يجيد السباحة . وشوهت الحمم وجه من كان يسبح ويحاول الإفلات من المياه الساخنة . والبعض الأخر شعر بدفء المياه ثم سخونتها وكاد يصلى بنارها . غير أن الموت أسعفه من الشعور بالألم .

تحولت الجزيرة إلى أراض مشتعلة . عشرة أيام لم يتوقف البركان فيها من لفظ ما في داخله من نار .تلك التي كانت مكتومة في داخله سنين طويلة . واختفي من على الجزيرة أي كائن حي سواء حيوان أو نبات أو إنسان . وفي اليوم العاشر توقف البركان عن إرسال رسل الموت .

•••

وصلت أنباء البركان إلى مملكة الأرخبيل . فرحت الملكة لاختفاء المتمردين في جزيرة البركان . وحزنت لأنها فقدت تراتيل حكيم المملكة

وقد أختلف مؤرخو مملكة الأرخبيل في مصير تراتيل . البعض قال إنه عاد إلى جزيرة الحكم ، ولكنه كان منهك القوى ، فلم يظهر للناس ، وتفرغ للعبادة ، ولو أن الملكة استمرت تستشيره في مسائل الحكم العويصة ، وهو يعطيها الرأي السديد .

والبعض الآخر قال إنه قضى نحبه ، فقد رفعه بخار البركان بقوة خارج الفوهة ثم سقط في البحر ، فأصيب بضربة في الصميم من أثر ارتطامه بالبحر ، فقد الوعي وغرق .

البعض الثالث قال إن تراتيل عاد إلى الجزيرة ، وعاش بين الناس . ولم يذهب إلى قصر الملكة ، واستمر يعلم الناس الحكمة والناس لا تكشف عن وجوده ، يذهبون إلى كوخه الذي أقامه في غابة جزيرة الحكم ، ويستمعون إلى حكمته ، ويعودون إلى بيوتهم ، وقد امتلأت قلوبهم بالإيمان بما يقول . ولا يزال تراتيل حيا لم يمت . ماتت أجيال وأجيال وهو لا يزال على قيد الحياة ، يعطي الحكمة للناس ، والناس تعمل بما يقول . ولا يفكرون يوماً أن يبلغوا الملوك عن مقره . فقد كان يوصيهم بذلك . وإذا قال لهم أخلصوا لهذا الملك أخلصوا . وإذا قال لهم أقلعوا ذلك الملك قلعوه وثاروا عليه ثورة عارمة . وأسقطوه ووضعوا آخر بدلاً منه . اصبح تراتيل كأنه روح تعيش في الشعب أو شعب يعيش في روح واحدة .

الرياض في ١٩٩٧/٤/٤

دَارُ الأَيَّامِ
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - ص: ٢٢١٦٩٠٤
بيروت - ص: ٠٣/٧٧٥١٢٤